

سلسلة روايات الجيب

أ - ١١٩

A - 119

قفي وسلمي قلبك

بلا عنوان

باربرا كارتلاند

في القرن الثامن عشر، أصبح قطاع الطرق يشكلون تهديداً بالغاً للمسافرين، حتى الطرق الرئيسية لم تعد آمنة.

وكان معظمهم من أسوأ المجرمين الذين لا يتورعون عن قتل أو تعذيب ضحاياهم.

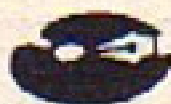
وكان بينهم، كما أوردت في هذه الرواية، قطاع طرق من أسر محترمة قد تثقفوا في مدارس عالية، فقد كان ويليام بارسون ابن باروث قد تلقى تعليمه في كلية إيتون وعين ضابطاً في البحرية الملكية، أما سيمون كلارك فقد كان باروناً اصيلاً. ولكنه اصبح قاطع طريق. وقد نجا بعضهم من حبل المشنقة، ولكن معظمهم شنقوا في ساحة عامة امام الجماهير.

سلسلة روايات الجيب

باربرا كارتلاند

أ - ١١٩

قفي وسلمي قلبك



دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

STAND AND DELIVER YOUR HEART

ISBN 0-7493-0832-X

الفصل الأول

١٨١٧

أخذت فاندا تجول في الغابات على ظهر جوادها وهي تفكر في مبلغ جمال هذا النهار الذي لم ترَ مثله منذ زمن طويل.

كانت زهور الربيع تبزغ من بين أوراقها الخضراء تحت الأشجار، كما كانت الطيور تصدح.

فقد كانت تستمتع دوماً بالتجول في المرج الفسيح الذي يحيط بقصر واين.

وكان السيد رشمان والذي يعمل مديراً للأملاك أثناء الحرب، قد أذن لها بأن تتنزه حيثما شاءت.

فقد كان الماركيز واين ستوك طريح الفراش بينما ابنه في الحرب يقاتل نابوليون.

وكان قد قال لها: «إن مشاهدة شخص فتي يجول في أنحاء المكان يجلب البهجة، وليس بك حاجة إلى أخذ سائس معك.»

وكان هذا، بالنسبة إلى فاندا، أكثر أهمية من أي شيء آخ

ذلك أن أباها كان مصراً على أن يرافقها دوماً شخص ما أثناء تجوالها.

وكانا يسكنان في جوار مرج واين في آخر القرية.

لم يكن عليها إلا أن تعبر الطريق تحت الأشجار فتصبح، حسب قولها حرة.

كانت تشعر بخيبة أمل بالغة لانتهاء الحرب ذلك أنها إذا عاد الماركيز الشاب من الحرب، لن يعود في امكانها التجوال في هذه الأراضي وكأنها ملك لها.

وكان الماركيز الشاب، الذي لا تكاد تتذكره قد ورث اللقب منذ ثلاث سنوات.

وكان قد أظهر من الشجاعة والإقدام في معركة واترلو ما استحق معه ميدالية الشجاعة.

ثم التحق باركان حرب الدوق أوف ويلينغتون للخدمة في جيش الاحتلال.

وكان الجيش قد سرح وابتدأت الألوف من الجنود تعود إلى الوطن.

ولكن لم يظهر أثر للماركيز.

وفكرت فاندا بسرور في أنه قد لا يعود أبداً.

واتجهت نحو عمق الغابة حيث كانت تعلم أنه لا يصل إلى هناك أحد سواها.

فهناك، كانت بقايا منزل قديم قد تكاثفت حوله الأشجار.

وكان يسكنه فيما مضى مدرّس اعتزل العالم لكي يرعى الطيور والحيوانات ويعتني بها.

كان ذلك المدرّس رجلاً بالغ النزاهة، وكانت القصص بكل أنواعها تسري في الأرياف عن الحيوانات التي كان يداويها من اصاباتها.

فالثعالب التي كانت تطبق عليها الفخاخ كانت لتموت لولا أخذه لها والاهتمام بها.

كما أن القطط والكلاب المصابة وكذلك الطيور التي تكسرت أجنحتها أو قوائمها كان الأولاد يأخذونها إليه.

كان يهتم بهم ويداويهم مثل الأطفال، فكانوا يعودون من عنده، كما تقول الروايات أقوى وأحسن حالاً مما كانوا من قبل أن يصابوا.

وما لبث المنزل الصغير الذي كان قد بناه لنفسه أن تهدم دون أن تمتد إليه يد الاصلاح.

ومن ثم خاف القرويون من الذهاب إلى ذلك المكان.

وكانت فاندا قد سألت امرأة عجوزاً مرة: «ولماذا تخافون من شخص كان بهذه النزاهة؟»

«لقد كان نزيهاً طبعاً، ولكن الواحد منا يشعر بنفس الخوف الذي يشعر به إذا رأى رجلاً ميتاً يقوم من قبره.»

وهكذا لم يكن هناك من يجرؤ على دخول تلك الغابة رغم تكرار ذهابهم إلى الغابات الأخرى.

ولكن فاندا كانت تعلم ان الصبية كانوا يذهبون إلى هناك للصيد سراً.

ولكنها كانت تفكر في نفسها أنهم لم يكونوا بذلك، يسببون أي ضرر.

إذ، في غيبة الماركيز في الحرب، لم يكن هناك من يصيد الحمام وطيور السمان.

أما بالنسبة إلى فاندا فقد كانت تلك الغابة اكثر بهجة وأنساً.

كانت تنصت فيها إلى طنين النحل، وخشخشة الأرانب تحت الحشائش وثرثرة السنجاب وهو يبحث عن الجوز.

وكثيراً ما كان يخيل إليها أنها كانت تسمع موسيقى تنبعث من الأشجار نفسها.

وكانت تحاول أن تؤلف منها قطعة موسيقية تعزفها على البيانو.

لقد كانت أمها عازفة بيانو غير عادية وكانت فاندا تحاول تقليدها منذ طفولتها.

وكانت تفكر الآن في أن عليها أن تؤلف ما تسميها (أغنية الربيع).

فقد كانت تعلم أن الأشجار هي ملهمتها. ذلك أن تحريك الريح للأشجار يؤلف أنغاماً عليها أن تتذكرها.

وإذا بها تسمع فجأة صوتاً غريباً بدا في أذنيها دخيلاً مستهجناً في هذا الجمال المحدق بها.

وتبعه صوت آخر، فأوقفت حصانها.

فقد كان أبوها يهتم دوماً باقتناء أحسن الجياد. والجواد الذي كانت تمتطيه حالياً كان هو المفضل لديها، واسمه كينفيشر.

واستجاب كينفيشر حالاً لجذبها لجامه، فوقف متسمراً مكانه.

لقد أدركت فاندا أن هناك رجالاً في وسط الغابة، حيث لم تشاهد أحداً من قبل قط.

وكان الصوت الذي سمعته، عبارة عن ضحكات خشنة وبعد أن أخذت تنصت تمكنت من سماع أصوات أدركت منها على الفور أنها لا تعود إلى رجال محليين.

فقد كان سكان قرية ليتل ستوك يتكلمون بلهجة مختلفة بطيئة النبرات.

وكانت أحياناً تضحك مع أبيها على ما يقولونه، والطريقة التي يتكلمون بها.

ولكنها كانت في الواقع تراها ظريفة تماماً.

ولكن هؤلاء الذين في الغابة كانوا يتكلمون بطريقة خشنة. فكانت لهجتهم مغايرة تماماً كما أن أصواتهم كان فيها شيء ما لم يعجبها.

وما لبثت ان شعرت بخوف غريب لم تستطع تعليله. وتساءلت عمن يمكن أن يحدث مثل هذه الضوضاء في مثل هذا المكان من الغابة الذي يعتبره الجميع مخيفاً.

وفكرت في أنهم ربما من أشقياء القرى، ولكن من أية قرية؟

وكيف تجرأوا على التعدي على أملاك الماركيز واين ستوك؟

كانت هذه اسئلة ليس لها أجوبة، وأدركت أن من الخطأ أن تحاول العثور على تلك الأجوبة بنفسها.

وعادت الضحكات والأصوات الخشنة.

لم تستطع فهم ما كانوا يقولونه ولكنها كانت واثقة

من أن الذين كانوا يتكلمون هم ثلاثة أشخاص وربما أكثر.

وهكذا استدارت بالجواد لتنطلق عائدة من نفس الطريق الذي كانت أقبلت منه.

وعندما لم تعد تسمع تلك الأصوات الغريبة خلفها، تملكها شعور بالغضب لاقتحام أولئك الغرباء عزلة الغابة هذه.

وتساءلت عما عسى أن يكون عملهم هناك، وما الذي يضحكهم؟

وحدثت نفسها بانها لن تجد أبداً جواب اسئلتها هذه، ولكنها تمنت لو أنهم يذهبون دون عودة.

وخطر ببالها فجأة في أنهم ربما يسببون الأذى للمنزل نفسه.

لقد كان قصر واين مثالاً رائعاً لأعمال الأخوة بريل وقد اكتمل بناؤه في منتصف القرن الماضي في مكان منزل أقدم منه كثيراً.

وكان نسب أسياد قصر واين يعود إلى هنري الثامن. وقد ازدادت أهميتهم خلال القرون، وكان كل سيد منهم يضيف شيئاً إلى القصر.

كما أنهم اشتروا المزيد من الأراضي.

وحيث ان فاندا قد نشأت في ظل القصر هذا، فقد كانت تشعر نحوه بحب عميق.

وكذلك أحبت الماركيز القديم لنفس السبب. وكان هذا رجلاً مرموقاً كان يستمتع بصحبة والدها الذي كان بنفس سنه تقريباً.

لم يذهب الماركيز إلى الجيش قط، ولكنه كان يحب أن يستمع إلى سيرة حياة والد فاندا الجنرال السير الكستر تشارلتون، التي أمضاها في الجيش.

كان يحدثه عن السنوات التي كان أمضاها مع فرقته في الهند وكيف كان نجاحها باهراً تحت قيادة ويلينغتون.

وعندما توفي الماركيز، كانت فاندا تدرك أن والدها يشعر بالضياع من دونه.

لقد سبق وحطمه وفاة والدتها فجعله غيابها عن حياتها أشبه بالعاجز. ولكن وجود صديق في عمره يتحدث إليه، كان له أثراً كبيراً في نسيان تعاسته تلك.

وها هي ذي الآن تفكر، وقد تملكها الحزن، في أنه لم يبق له سواها.

ومع أنها حاولت أن تسد تلك الثغرة في حياته، فقد كان من الصعب أن تقوم بأي شيء غير الاستماع إليه عندما يتحدث.

ولحسن الحظ، أخذ الجنرال، كما يسميه أهل القرية، يؤلف كتاباً وهو ما كان يأخذ من وقته الكثير نظراً لكثرة ما كان يتذكره وما يريد تسجيله.

ولكنه على الأقل قد وصل في ذكرياته تلك إلى السنة التي ولدت هي فيها.

كانت فاندا واثقة من أن هذا الكتاب، عندما يُنشر سيستقبله الناس باهتمام كبير.

وكانت هي في الواقع قد واجهت صعوبة بالغة في اقناع أبيها بأن يدون تلك القصص المسلية الممتعة

التي كان لا ينفك يرويها والتي طالما أحبت أمها سماعها.

فكانت تتوسل إليه بقولها: «حدث فاندا كيف قمت بقمع عصيان جنودك الهنود. أو صف لها جمال قصر مرهاجا انداجور وكذلك، ذلك القصر الوردي في جيبور والذي اعجبك أكثر من غيره.»

وكانت فاندا مشغوفة حباً بحكايات أبيها. وكانت تعلم أن مهمة استعادته ذكرياته الماضية كانت تشكل فارقاً كبيراً في حياته.

لقد كان يكتب حين خرجت من البيت، وبالتالي فهو لن يدرك كم ساعة غابت فيها.

وكان قد عجز عن مرافقتها في نزهاتهما المعتادة على ظهور الخيل وذلك منذ سنة ونصف السنة، فكانت في البداية تشعر بالذنب إذ كانت تعلم مدى استمتاعه بركوب جياده المطهمة.

ولكن ساقي السير الكسندر كانتا متورمتين من الروماتيزم فكانتا تؤلمانه عند المشي فكيف بالركوب؟ وحين وصلت فاندا إلى نهاية الغابة، اخذت تتساءل عما إذا كان عليها أن تعود إلى منزلها وتخبر أباها عن أولئك الرجال الغرباء في وسطها.

ولكنها مالبثت أن واتتها فكرة افضل، وهي ان تتابع طريقها إلى القصر لتحذر المشرفين عليه.

فإذا كان في نية أولئك الأشقياء إثارة المتاعب، فقد يرشقون نوافذ القصر بالأحجار، وأخيراً، قررت أن تحذر السيد والسيدة تايلور.

وهكذا أسرعت بجوادها خلال الحدائق تحت أشجار السنديان عابرة الجسر القائم فوق البحيرة لتدخل بعد ذلك إلى الاسطبلات.

لقد كانت تشعر حين ذهابها إلى هناك، وكأنها قادمة إلى منزلها، وذلك لاعتيادها التواجد في هذا القصر منذ طفولتها.

وعندما وصلت إلى الفناء، خرج كبير السائسين، والذي كان يعرفها منذ صغرها، من الاسطبل، فابتسم لها محيياً وهو يقول: «مساء الخير يا آنسة. إنني مسرور برؤيتك.»

أجابت: «اشكرك. أرجو أن يكون الجرح في يدك قد شفي.»

قال: «لقد شفي حالما اخبرتني انت كيف اعالجه.»

واخذ منها حصانها كينفيشر يقوده إلى المربط، بينما تحولت هي لتسير في الطريق الذي تحده من جانبيه مختلف انواع الأزهار، والذي ينتهي عند باب المطبخ.

وكان هذا غرفة بالغة الاتساع ذات سقف عالٍ اعتادت ان تتدلى منها أنواع اللحوم والطرائد، ولكن لم يكن يتدلى منها حالياً سوى أرنب صغير، وكان الزوجان المشرفان على المنزل جالسين إلى مائدة المطبخ يتناولان الشاي.

وهمّ السيد تايلور بالوقوف لحظة دخول فاندا، ولكنها اسرعت تقول: «لا تتحرك، فأنا حضرت فقط لأخبركما بشيء.»

فقالت زوجته السيدة تايلور، وهي امرأة ذات وجه كبير أحمر الخدين: «تفضلي بالجلوس، يا آنسة فاندا. إنني واثقة من أنه يسرك تناول كوب من الشاي معنا، فنحن لم نكد نبدأ.»

أجابت فاندا: «هذا يسرني جداً.» فقد كانت تعلم أن هذا ما يتوقعان سماعه منها، وسيصيبهما رفضها بخيبة الأمل رغم انها لم تكن تحب الشاي السيلاني الثقيل.

وعندما أصبح كوب الشاي بجانبها، قالت: «لقد حدث اليوم شيء غريب. كنت أسير خلال غابة المدرّس ممتطية جوادي، فماذا تظنان كان في وسط الغابة التي لا يذهب إليها احد سواي؟ لقد كان هنالك رجال.»

وسكتت لحظة، ولما لم يتكلم السيد والسيدة تايلور، عادت تقول: «لقد كانوا غرباء، كما أنهم لا ينتمون إلى هذه المنطقة مطلقاً. وكان عددهم كبيراً، وكانوا يضحكون بشكل غير مهذب.»

عند ذلك انتبهت إلى ان الزوجين كانا يتبادلان النظرات بصمت.

وشعرت، رغم بُعد ذلك عن المعقول بانهما لم يشعرا بالدهشة لما قالته. وأخيراً قال السيد تايلور بلهجة بطيئة: «كانوا في غابة المدرّس؟ ماذا تظنينهم كانوا يفعلون هناك؟» وكان يخاطب بذلك زوجته.

فلم تجب هذه وبدا انها تشغل نفسها بسكب مزيد من الشاي في كوبها رغم أنه كان ممتلئاً تقريباً.

ونقلت فاندا نظراتها من أحدهما للآخر، ثم سألت: «هل سبق وسمعتما عن أولئك الرجال من قبل؟»

فسارعت المرأة تقول: «كلا، كلا، لا نعرف عنهم شيئاً.»

كان الإضطراب يبدو عليها واضحاً، وكانت طريقة كلامها غريبة على طباعها.

فنظرت فاندا إلى الزوج دون أن تتكلم ولكنه كان يعلم جيداً انها توجه إليه سؤالاً، وبعد فترة، قال: «لا اعرف شيئاً اخبرك به، يا آنسة فاندا. فليس لأولئك الرجال علاقة بنا.»

فاصرت قائلة: «ولكنك تعلم بانهم موجودون. هل سبق وأثاروا المتاعب هنا؟»

فوضعت السيدة تايلور إناء الشاي من يدها، ثم بسطت راحتيها على المائدة وهي تقول: «والآن، اسمعي، يا آنسة فاندا. عودي إلى بيتك ولا تنطقي بشيء عما سمعته. فليس بوسعك أن تقومي بشيء، كما أننا لا نريد المشاكل.»

فسألتها فاندا بارتياك: «مشاكل؟ أي نوع من المشاكل تتحدثين عنه؟ وبماذا يؤثر عليكما هذا الأمر؟»

فنظرت المرأة إلى زوجها شاعرة بالعجز، فقال: «إننا وحيدان هنا، يا آنسة فاندا، باستثناء سائسي الخيل، غودريد، وقد كبر في السن، بينما نات وبن يبدوان عاليين على ظهور الخيل، صغيرين على الأرض.»

ولو لم تكن فاندا قلقة، لابتسمت لكيفية وصفه للسائسين الصغيري السن، فتساءلت عما تراه يجري ولماذا يبدو الزوجان غامضين بهذا الشكل.

وفعلاً، لم يكن هناك من يمكن أن تخبره عن هذا الأمر.

فالسيد رشمان، المدير، كان فوق السبعين ولم يعد يستطيع امتطاء جواد ليطوف في أنحاء المقاطعة وإنما يستعمل لذلك عربة صغيرة بحصان واحد.

كما أنه ليس بصحة جيدة، وكان في الشتاء يلازم سريره مصاباً بالتهاب الشعب، وذلك لأسابيع طويلة، واقتربت من المائدة بكرسيها، ثم اسندت ذقنها إلى يديها وهي تقول: «والآن، اخبراني عما يزعجكما، أنتما الاثنين. انكما تعلمان انني سابذل وسعي في معاونتكما، وإذا شئتما ان التزم الصمت، فسافعل ولن اخبر أحداً.»

فنظر تايلور إلى زوجته، والتي اطلقت آهة طويلة بدت وكانها خرجت من اعماقها، لتقول بعد فترة: «ولكنني أخاف جداً من الكلام عنهم.»

فسألتها فاندا: «من الكلام عن ماذا؟»

فتنحنح تايلور وقال: «هذه هي المسألة، يا آنسة فاندا. إننا هنا، كما تعلمين، لرعاية القصر إلى حين عودة سيادة الماركيز.»

فقالت فاندا مشجعة: «ليس ثمة من يمكنه أن يقوم بذلك بشكل افضل منكما.»

وكان صحيحاً انهما، بمساعدة ثلاث نساء من القرية استطاعا ان يجعلا القصر يبدو، في غاية النظافة والترتيب، كما كان يبدو في حياة الماركيز الراحل، رغم انه لم يعد هناك أربعة من الخدم في القاعة، أو رئيس مسؤول عنهم، وقد عين السيد رشمان السيد تايلور وزوجته للإشراف على المنزل، وذلك بعد وفاة الماركيز العجوز.

وقد نفذا ما طلب منهما بكل دقة مبدين عناية بالغة بالقصر.

وطالما حدثا فاندا عن مبلغ سرورهما بعملهما هذا. ولكنها الآن لا تستطيع أن تفهم ماذا جرى ليجعلهما يشعران بكل هذا الخوف الذي يمنعهما حتى عن السبب في ذلك.

قالت تحثه على الكلام: «استمر.»

فابتدأ يقول: «لقد كان قدومهم منذ أسبوعين تقريباً.»

فقالت: «ولكن من هم هؤلاء؟»

فأجاب: «هذا ما ليس مفروضاً أن تعرف، ولكنهم رجال.»

وكانت فاندا قد سبق وعلمت ذلك من اصواتهم. ولكنها لم تقاطعه، واستمر هذا يقول: «لقد طلبوا ماءً وهم يقولون لي ولزوجتي، ان نغمض اعيننا ونطبق شفاهنا، وبهذا لن يصيبنا أي ضرر.»

فهتفت فاندا: «هل قالوا ذلك حقاً؟ وبماذا اجبتهم؟»

فأجاب: «انهم ليسوا من نوع الرجال الذين يمكن أن يرد عليهم المرء.»

«ماذا حدث إذن؟»

فقالت زوجته باضطراب بالغ: «لا تخبرها، لا تخبرها.»

فقالت فاندا: «الأفضل ان اعرف الحقيقة كلها. فإذا حدث بعد ذلك أي شيء، سيكون بإمكاني أن اساعدكما.»

فقالت السيدة تايلور: «لا شيء سيحدث. لا شيء، لقد وعدونا بذلك إذا نحن لم نكشف أمرهم.»

فابتسمت فاندا مشجعة وهي تقول: «إنني لن أقوم بذلك، كما أنني لا أريد رؤيتكما حزينين.»

فقال تايلور: «إننا حزينان بما فيه الكفاية، ولكن ليس هناك ما يمكننا صنعه في هذا الشان.»

فسألته: «وأين يقيم الرجال؟»

فساد صمت قصير، ثم خفض من صوته إلى حد الهمس ليقول: «انهم في الجناح الغربي، يا آنسة.»

فنظرت فاندا إليه ذاهلة.

لقد كان الجناح الغربي قد اوصد قبل وفاة الماركيز بوقت طويل.

ذلك أنه كان قرر ان القصر واسع جداً، وان الجناح الغربي يحتوي على عدد من الغرف لم تكن تستعمل أبداً.

لقد كان في الجناح الشرقي معرض الصور، وقاعة الاحتفالات وعدد قليل من غرف النوم في الطابق الأعلى.

أما في الجناح الغربي، فقد كان هناك عدد كبير من غرف النوم لا أهمية تاريخية لها.

وكانت فاندا تقدّر أن المهندس لم يبنها إلا لتحقيق التوازن في المظهر الخارجي للقصر مع الجناح الآخر.

ولكنه كان على كل حال جزءاً من القصر. فهي لا يمكن أن تتصور شيئاً اكثر بعثاً للهلع من وجود مقتحمين، أو مهما كانت صفات أولئك الرجال، يعيشون في القصر.

وبدا لها من غير الطبيعي ألاّ يذهب تايلور وزوجته إلى السيد ريشمان يطلبان منه طرد الرجال.

ولكنها كانت تعلم، على كل حال، ان من الخطأ بالنسبة إليها، ان تنتقد تصرفهما.

وهكذا قالت: «ان تهديدهم لكما هو شيء مخيف جداً، ولكن لا بد أنهم لا ينوون الإقامة طويلاً.»

فأجاب الرجل: «نحن لا نعلم شيئاً عن ذلك، اننا فقط نتجاهل الأمر ونعتبرهم غير موجودين.»

فقالت بهدوء: «ولكنهم معتدون على املاك الغير.»

فقال: «نعلم ذلك، ولكنهم خطرون، يا آنسة فاندا، وطالما سمعنا عن أمور وقعت، قد تقع هنا.»

فسألته: «أي نوع من الأمور هي؟»

ومرة أخرى، خفض من صوته حتى لم تكد تسمعه، ثم قال: «جرائم قتل.»

فهتفت: «لا اصدق ذلك، وإذا كان هؤلاء الرجال مجرمين، فكيف نسمح لهم بالبقاء هنا في القصر قريبين من القرية.»

فنظر تايلور من فوق كتفه خوفاً من أن يكون سمعها أحد، ثم قال متوسلاً: «لا ترفعي صوتك، يا آنسة فاندا، فإذا حدث أي شيء لك فلن نسامح نفسينا أبداً.»

فقالت زوجته توافقه: «كلا بالطبع. والآن، إياك ان تتكلمي بشيء عن هذا الأمر، يا آنسة فاندا، وربما يذهبون من هنا.»

فسألتهما: «وإذا هم بقوا؟»

فنظر الزوجان الواحد إلى الآخر ما جعلها تدرك مقدار خوفهما. وتساءلت عما عسى ان تقول لهما للتخفيف عنهما.

وفي نفس الوقت كانت تحاول ان تفكر بسرعة بمن يتمكن من طرد هؤلاء المعتدين على أملاك الماركيز، والذين استولوا على منزل خالٍ لا يحرسه سوى شخصين عجوزين.

وفكرت في أنه كان من الحماقة ان لم يفكر احد في احتمال حدوث شيء كهذا وخصوصاً بعد الحرب.

ذلك أن الرجال الذين جازفوا بحياتهم في سبيل إنقاذ وطنهم، قد سرحوا من الجيش دون أي راتب تقاعدي.

حتى أولئك الذين فقدوا يدهم أو رجلهم لم يقبضوا أي تعويض.

فقد كان أبوها سمع بما كان يحدث في المناطق الساحلية.

إذ كان رجال البحرية الذين طردوا من عملهم يطوفون المناطق الريفية يبحثون فيها عن لقمة العيش ويطلبون النقود من اصحاب البيوت الفقراء.

وقد قال أبوها مرة بلهجة تملؤها المرارة: «أنا لا ألومهم. فقد ربحوا الحرب، ولكن عندما حل السلام، لم يعد احد يهتم بهم.»

حينذاك ردت عليه فاندا بحرارة: «ولكن لا بد للحكومة من أن تقوم بشيء لأجلهم.»

فكان ان اجابها أبوها: «نعم، لا بد لهم من ذلك، ولكنني أشك في انهم سيفعلون شيئاً.»

واستمر الحديث بينهما عن الرجال الذين عادوا إلى الوطن ليجدوا وظائفهم قد استلمها أولئك الذين مكثوا أثناء الحرب في منازلهم.

وقد ضل كثيرون منهم تماماً.

والآن، بعد أن انتهت الحرب، لم تعد الحاجة ملحة إلى المواد الغذائية كما كان الأمر أثناء الخمسة عشر عاماً التي استمرت فيها الحرب تلك.

وهكذا اخذ الكثير من الارستقراطيين اصحاب الأراضي يعانون مادياً من آثار الحرب، إذ لم يعد بإمكانهم، بعدها، استخدام مثل ذلك العدد الكبير من المستخدمين الذين اعتادوا استخدامهم، قبلها. لقد كان المستأجرون بحاجة إلى اصلاح منازلهم، ولكن المالكين لم يكن لديهم المال الكافي لذلك.

وكان من الصعب أن تعرف انكلترا أين من الممكن أن تجد مشترين للمحاصيل.

وكانت فاندا تفكر في أنه لا بد أن يكون هناك شخص بإمكانه أن يدفع هؤلاء الرجال إلى تقويم سلوكهم. وشعرت بأنها عادت تسمع اصوات أولئك الرجال الحادة وطريقة احاديثهم الخشنة.

ولكنها كانت تعلم أن من بإمكانهم مجابهتهم من رجال القرية هم قليلون.

وأخيراً، قررت أن عليها مناقشة هذا الأمر مع أبيها.

فهو لا شك يعلم ما إذا كانت هناك قوة عسكرية في مكان قريب.

حتى إذا ازدادت الأمور سوءاً، فبإمكانهم ان يستدعوا جنوداً تطرد أولئك المقتحمين الذين يسببون المتاعب.

وفكرت في أن هذا ما ينبغي لها عمله.

ولكنها كانت في نفس الوقت، تعلم ان من الخطأ ان تخبر

تايلور وزوجته بما عقدت عليه النية. فقالت برقة: «أرى انكما تصرفتما بشجاعة بالغة. ولكن هذا أمر لا يمكن أن يستمر.»

فقال تايلور بسرعة: «إياك ان تقومي بشيء، يا آنسة فاندا، وإلا فقد يلحقون بك وبأبيك الضرر.»

أجابت: «لا أظن ذلك، فهم لا يستطيعون أن يدخلوا القرية، ويقتحموا بيوت الناس ثم يضربوا أو يقتلوا المواطنين العاديين.»

فقال تايلور بعناد: «هذا ما سيفعلونه بالضبط.»

فحملقت فاندا فيه ثم قالت: «انك رجل عاقل يا سيد تايلور، وتعلم كما اعلم انا أنه ليس بإمكاننا ان ندع مثل هؤلاء الناس يجعلون القانون بأيديهم.»

فقال الرجل وهو يشير بإبهامه: «ولكنهم فوق القانون.»

فهزت فاندا رأسها قائلة: «ليس هناك من هو فوق القانون، وليس لأحد الحق في التدخل مع الناس العاديين أو تهديدهم.»

فتدخلت زوجته قائلة: «انك لا تدركين الأمر.» ونظرت إلى زوجها ثم تابعت تقول: «الأفضل ان تخبرها أنت عمن يكونون.»

فقال زوجها بحدة: «هذا خطأ.» ثم أضاف قائلاً: «حسناً، حيث أن الآنسة فاندا تعلم الكثير فعليها أن تعلم أننا سنجلب المتاعب إلى انفسنا إلا إذا اطبقنا فمنا عن الكلام.»

ومرة أخرى، أخذت فاندا تحملق فيهما واحداً بعد الآخر.

كانت تحاول ان تفهم سبب كل هذا الخوف الذي يتملكهما ولماذا يصممان على انها يجب أن لا تقوم بشيء.

وفجأة شعرت بالخوف من ان يقتحم أولئك الرجال بقية المنزل.

فقد كان قصر واين رائع الجمال من الداخل. وشعرت بأن كل قطعة من الأثاث، وكل صورة، وكل كتاب في المكتبة الكبيرة... كل هذا هو، بشكل ما، يخصها.

لقد عرفت واحبت كل هذا منذ اصبحت من الوعي بحيث تقدر مثل تلك الممتلكات الرائعة.

فقد اصبح قصر واين مألوفاً لديها كمنزلها تماما. وكانت تعلم أنه لو أصيب أي من كل ذلك بالتلف، لتحطم قلبها.

وفكرت بهلع في تلك الصور المعلقة على جدران غرفة الجلوس.

وفي اللوحات التي تضم صور أفراد أسرة واين، والصور في المعرض التي كان كل ماركيز جديد يضيف إليها المزيد.

وشبكت يديها معاً، وقالت: «يجب ان نحمي القصر من أولئك الناس المخيفين. افرض انهم نهبوا الغرف، أفرض انهم اشعلوا النار في القصر بأجمعه.»

فقال تايلور: «انهم لن يفعلوا ذلك ما دمنا نقدم إليهم المأوى، ولكن إذا نحن طردناهم، فكل شيء ممكن الحدوث.»

«ولكن لا يمكنهم البقاء إلى وقت غير محدد.»

فقال تايلور: «انهم سيرحلون ساعة يحلو لهم ذلك، فهم فقط يريدون مكاناً يرتاحون فيه، ويخفون غنائمهم.»

فكررت قوله متسائلة: «يخفون غنائمهم؟ ماذا تعني بذلك؟ ما الذي لديهم ليخفونه؟»

كانت هذه أسئلة اعادت، مرة أخرى، تايلور إلى صمته وخوفه.

وفي الواقع، لقد ابتدأت فاندا ترى أن الأمر سخيف حقاً، إن تايلور رجل قوي البنية. فلماذا يرتجف خوفاً من عدة فتيان متمردين لم يظهر منهم حتى الآن أي ضرر؟

قالت بصوت رقيق: «والآن، ما أريد منك أن تسمح لي به هو أن اطلع أبي على الأمر، انك تعلم كم هو ماهر، وقد كان جندياً طوال حياته.»

فهتفت زوجته بذعر فجأة: «جنود؟ إذا جاء الجنود إلى هنا فسيقتلوننا. إننا سنموت نحن الاثنين. ان هذا ما سيحدث حتماً، يا آنسة فاندا، وستكونين انت المسؤولة عن ذلك.»

فمدت فاندا يدها تضعها على يد السيدة تايلور وهي تقول: «أرجوك ألاّ تقلقي. فالجنود لن يحضروا إذا كان ذلك سيخيفك، ولكن علينا أن نقوم بشيء.»

فقال السيد تايلور: «ليس في إمكاننا القيام بشيء. هذه هي الحقيقة.»

وقالت زوجته متوسلة: «إذهبي وانسي كل شيء. سنكون بخير مادمنا لا ننطق بشيء.»

شعرت فاندا بأنها امام عقبة يصعب التغلب عليها. وقالت بعد لحظة: «اخبرني من أين جاء أولئك الرجال ومن يكونون. لا بد أنك تعلم ذلك.»

فقالت المرأة هامسة: «نعم، اننا نعلم ذلك.»

فقالت فاندا متوسلة: «إذن، اخبريني، فقد استطيع ان افهم سبب خوفكما هذا.»

ونظرت إلى تايلور.

ومرة أخرى، نظر هو من فوق كتفه نحو الباب وكأنه يخشى من قدوم أحد، ثم مال نحوها على المائدة وقال هامساً: «إنهم قطاع طرق.»

الفصل الثاني

وفي طريقها إلى بيتها، اخذت فاندا تتساءل عما بإمكانها أن تفعله بالنسبة إلى تايلور وزوجته، فقد كان رعبهما من قطاع الطرق واضحاً، وكانا يتوسلانها ويرجوانها ألاّ تخبر أحداً بالأمر، ولا أن تحاول إخراج أولئك الرجال من الجناح الغربي.

وعندما استرجعت ما تعرفه عن قطاع الطرق، أمكنها ان تفهم سر خوفهما ذاك، فلطالما طلبت من أبيها أن يخبرها عما كان عليه قطاع الطرق من تهديد خطر، وذلك عندما كان شاباً، وكان أشهرها عصابة كانت تدعى «عصبة الفرسان».

وكان عدد منهم، هاوكنز، ماكلين، ران، بيج... قد سبق وخدموا في منازل البلدان الراقية، ولهذا أرادوا محاكاة أسيادهم الارستقراطيين بأن يبدو بمظهر راقٍ فسموا انفسهم اسياد الطرق المهذبون.

وكان هنالك أيضاً، كما اعتاد أن يقول أبوها، رجال كانوا في الحقيقة أسياداً مهذبين، ولكنهم وجدوا هذه الطريقة، قطع الطريق، هي الوحيدة لتحصيل النقود.

سألته فاندا مرة: «لا بد أنها كانت طريقة خطرة، يا أبي.»

فأجاب: «لقد انتهوا جميعاً، تقريباً، إلى الاعدام.»

سألته: «وهل هناك رجال مهذبون حقاً يختارون مثل هذا العمل المشين؟»

ففكر الأب لحظة، ثم قال: «كان ماكلين من اهالي الجبال الطيبين الأصيلين وكان والده عمدة، ويليام بارسونز كان من النبلاء وأبوه بارون، قد تثقف في كلية إيتون وعين ضابطاً بالبحرية.»

فهتفت: «وكيف انحدروا إلى هذا الدرك؟»

فتابع أبوها يقول: «وكان السير سيمون كلارك باروناً أصيلاً.»

فقالت: «إنه شيء لا يصدق أن يقوموا بمثل هذه الأشياء الخارجة عن القانون، ما يحمل المجتمع على نبذهم.»

فقال باسماً: «لقد كانوا كذلك حقاً، ولكن البعض منهم احتفظ بسلوك طبقته المهذب.»

فسألته: «من تعني بذلك بوجه خاص؟»

فأجاب: «إن جايمس ماكلين يستحق حقاً لقب (قاطع الطريق المهذب)، فقد كان اطلق مسدسه خطأ فأصاب هوراس والبول المشهور، بجراح وذلك في حديقة هايد بارك.»

ودهشت فاندا ولكنها لم تقل شيئاً بينما تابع أبوها يقول: «لقد ندم تماماً لذلك وأرسل إلى السيد والبول رسالتين يعتذر إليه فيهما بأسف عميق.»

فقالت: «لقد كان على الأقل، رجلاً مهذباً.»

فقال: «ولكن، من ناحية أخرى، كان هناك الكثير ممن هم بعكسه، لسوء الحظ.»

وفكر لحظة، ثم عاد يقول: «ربما أسوأ رجلين منهم كانا

الكابتن جايمس كامبل والسير جون جونسون، اللذان اختطفا فتاة وارثة، وكانت في الثالثة عشرة من عمرها فقط، ولكن لديها ثروة تبلغ خمسين الف جنيه.»

فسألته: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

«لقد حملاها على الزواج من جايمس كامبل رغم إرادتها، وذلك لكي تصبح ثروتها ملكه حسب القانون.»

«ما افظع هذا بالنسبة إليها.»

فقال أبوها متجهم الوجه: «وهو كذلك، وقد اعدم السير جون جونسون بتهمة اشتراكه في اختطاف الفتاة، أما جايمس كامبل فقد هرب إلى أوروبا.»

وإذ اخذت فاندا تستعيد كل هذه القصص الآن، ابتدأت تتساءل عما عسى أن يكون نوع اولئك الرجال الموجودين في جناح القصر الغربي.

لقد استنتجت من اصواتهم انهم قد يكونوا مجرمين حقاً كما يعتقد تايلور وزوجته.

ولكن، قد يكون زعيمهم رجلاً افضل نشأة وغير بالغ العنف.

ولكنها عادت ففكرت في أنها قد تكون متفائلة بالنسبة لتفكيرها هذا، إذ لا بد انهم ظهروا امامه بمنتهى الشراسة.

وعندما اقتربت من بيتها، كانت قد عقدت العزم على ان تحدث أباها بكل شيء، وذلك بعد ان تجعله يقسم على الاحتفاظ بسرية هذا الأمر.

ولكنها كانت واثقة من انه لن يستطيع شيئاً إزاء ذلك رغم ما قد يشعر به من هلع لهذا الوضع.

وخطر لها فجأة انه إذا كان قطاع الطرق بمثل ذلك السوء الذي يقال عنهم، فمن الممكن أن تكون هي وأبوها في خطر، كذلك. فقد كان منزلهما هو الأكبر في القرية، ما يجعلهما من وجهة نظر قطاع الطرق، من الأثرياء بكل تأكيد.

بينما ليس لديهما أية وسيلة للدفاع ومواجهة عصابة مسلحة من الرجال.

هذا إلى أنه لم يكن معهما، هي ووالدها، سوى رئيس الخدم دوبسون وجيني الطاهية، وكذلك هاوكنيز والذي كان مرافقه في الجيش، ومع ان هذا قد اصبح طاعناً في السن، إلا أنه مازال ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه، كما كان هناك امرأتان تأتيان لتنظيف المنزل، ولكنها اخذت تفكر في أن الجميع، كانوا متقدمين في السن ما عداها. وسألت نفسها، إذا أنا لم اخبر أبي، فمن أخبر إذن؟

وشعرت بنفسها تحمل عبئاً ثقيلاً، وحيث انها اكتسبت ثقة تايلور وزوجته، فقد توجب عليها الآن ان تقوم بمساعدتهما بطريقة ما، ولكن الصعوبة تكمن في كيفية ذلك، وأخذت جوادها إلى الاسطبل حيث كان هناك سائسان فوق الخمسين من العمر، للعناية بجياد أبيها.

فاستلما منها كينفيشر حيث اقتاداه إلى مربطه، بينما سارت هي نحو المنزل ببطء.

كانت لم تقرر بعد على شيء، ولكن احساسها كان يلح عليها في أن ليس بإمكانها أن تتكىء بارتياح آملة في أن

قطاع الطرق سيرحلون، وأخيراً قررت على أن تتحدث إلى أبيها في هذا الأمر.

اتجهت إلى غرفة المكتب، ولكن الدهشة تملكتها إذ لم تجد أباها خلف مكتبه. ولكنها سرعان ما وجدته جالساً على كرسي كبير امام المدفاة وعلى ركبتيه كتاب يبدو أنه كان يقرأ فيه. وكان متكئاً إلى الخلف مغمض العينين فأدركت فاندا أنه نائم، ووقفت تنظر إليه.

كانت إمارات الشيخوخة قد ابتدأت تظهر عليه رغم أنه مازال رجلاً بالغ الهيبة وجمال المظهر.

وكان شعره أبيض تقريباً بينما، وهو مستريح، قد ظهرت خطوط ممتدة من شفتيه إلى ذقنه لم تكن فاندا قد لاحظتها من قبل.

وفكرت في أن ليس بإمكانها أن تزعجه. فهذه ستكون قسوة، وعليها ان تفكر في الأمر وتقلبه على وجوهه، بنفسها، إذا بها تتذكر السيد رشمان، فهو مدير الأملاك على كل حال.

ومع أنه كان، هو الآخر، عجوزاً، فإن بإمكانه من وضعه ذاك، أن يتصرف بما يحمي منزل سيده.

وعندما أخذت تفكر في ذلك، اصبحت واثقة من أن السيد رشمان بإمكانه أن يستغيث بقائد الشرطة أو الضابط المسؤول في ثكنة الجيش والتي لم تكن بعيدة عنهم. وحدثت نفسها بلهجة المنتصر، هذا هو الحل، وأدركت أن عليها أن تذهب إلى منزل السيد رشمان على الفور.

لم يكن ثمة حاجة بها إلى طلب جوادها مرة أخرى فقد كان منزل السيد رشمان خلف الجدار الذي يحيط بالحديقة، وبإمكانها أن تصل إلى هناك مشياً في أقل من عشر دقائق، وهكذا خرجت من الباب الأمامي دون ان تكلف نفسها عناء تغيير ملابس الركوب التي ترتديها.

دخلت الحديقة من البوابة الجانبية التي كانت تستعملها على الدوام، ومن ثم أسرعت في السير تحت أشجار السنديان إلى أن لاح لها الكوخ الأبيض، ولم يكن هذا كوخاً في الواقع، ولكنه قائم مكان كوخ كان مكان الحراسة لمختلف مداخل الحديقة، وقد أصبح الكوخ الآن منزلاً بالغ الجمال والراحة. وكان السيد رشمان قد عاش فيه مع زوجته منذ تعيينه مديراً للأملاك، ولكنه الآن يعيش بمفرده بعد ان ماتت زوجته ومع هذا كان يبدو سعيداً تماماً، وكان بيته ممتلئاً دوماً بالزوار.

فهناك القرويون يحملون متاعبهم بالنسبة إلى سقف يرشح ماء أو نافذة مكسورة. وكان هنالك أيضاً امثال الطبيب والاستاذ واعضاء نادي الصيد الذين كانوا يعتبرون السيد رشمان صديقاً لهم، وكانت فاندا وأبوها مولعين به جداً، وكانت تفكر الآن في مدى حماقتها بعد ان أدركت أنه كان عليها أن تقصده على الفور، كما كان عليها أن تنصح ذلك تايلور وزوجته، وفتحت لها الباب مديرة منزل السيد رشمان، والتي كانت امرأة متوسطة في السن وقوية الشخصية.

بادرتها المرأة قائلة: «كم تسرني رؤيتك، يا آنسة تشارلتون، وأنا واثقة من ان السيد رشمان سيسر برؤيتك هو أيضاً.»

وأسرعت أمامها دون انتظار جواب منها، إلى أن وصلت إلى باب المكتب حيث يجلس السيد رشمان عادة، فاستدارت إلى فاندا تقول هامسة: «ان ساقيه تؤلمانه اليوم، والأسوأ من ذلك بالنسبة إليه، كما سيخبرك بنفسه، هو ان هناك شيئاً هاماً.»

أرادت فاندا ان تسألها عن كنه ذلك الشيء الهام لولا ان مديرة المنزل كانت قد فتحت الباب وهي تعلن: «الآنسة تشارلتون تريد أن تقابلك، يا سيدي.»

لم يكن السيد رشمان خلف مكتبه ولكنه كان جالساً على كرسي مستقيم الظهر وقد مد ساقيه امامه على مقعد منخفض، وبجانبه كانت هناك مجموعة من الأوراق ودفاتر الحسابات، وكان يكتب بقلم ذي ريشة عريضة.

عندما دخلت فاندا، رفع بصره إليها ثم ابتسم قائلاً: «انك الشخص الذي أريد رؤيته الآن بالضبط، يا آنسة فاندا، وفي الواقع، كنت على وشك إرسال خبر إلى والدك.»

فسألته وهي تجلس على كرسي بجانبه: «بخصوص ماذا؟»

فقال: «ان لدي خبراً طيباً، ولكنه جاء في الوقت الذي لا استطيع فيه تحريك ساقي.»

فسألته: «وما هو هذا الخبر؟»

فأجاب السيد رشمان بلهجة مسرحية: «إن سيادة الماركيز عائد إلى بيته.»

* * *

كان الماركيز واين ستكوك قد وصل إلى لندن، وكان قد مضى وقت طويل منذ كان في انكلترا، فرأى كل شيء أمامه قد تغير، وحسب رأيه، لم يكن ذلك التغيير نحو الأفضل، لقد اصبحت الشوارع اكثر ازدحاماً، كما رأى ثمة عدداً من الشحاذين اكبر مما كان يتذكر، ولم يكن قد غاب عنه، عند نزوله في دوفر، عدد الجنود والبحارة المسرحين والذين كانوا منتشرين في كل مدينة توقف فيها، وكانوا يتسكعون هنا وهناك دون عمل يقومون به، أو في حالات كثيرة، كانوا يجلسون بجانب الطرق وقد تملكهم الاكتئاب والقنوط، راجين دون ان يكون هناك أمل، في أن تأخذ احدهم الشفقة عليهم.

وكان الماركيز قد سمع عندما كان مايزال في فرنسا، ان هذا ما كان يحدث في انكلترا، وها هوذا الآن يرى ذلك بأم عينيه، ما جعله في أشد الغضب، ذلك انه بعد القتال ضد بونابرت، لم يكن هناك من يقدر اكثر منه مبلغ ما أبداه الجندي الانكليزي من شجاعة وتحمل وجلد، وكان قد سمع نفس القصة من اصدقائه الذين كانوا في البحرية.

لقد كان مما يبعث على الذعر، ان يكافأ الرجال الذين عملوا تحت قيادة نلسون وويلينغتون بهذا الشكل.

وكان مصمماً على ان يتحدث بهذا الموضوع حالما تسنح له الفرصة وذلك في (مجلس اللوردات). لقد كان يعلم، على كل حال، ان هناك كثير من العمل بانتظاره حين يصل إلى موطنه.

قبل كل شيء، كان عليه أن يفتح منزله في ساحة بيركلي في لندن وقصر واين في ويلتشاير، وكان قائده الدوق أوف ويلينغتون يراه واحداً من اقدر ضباطه وانبغهم في التنظيم، وكان الماركيز من الذكاء بحيث كان يدرك ان هذا ما سيحتاجه لإعادة بناء حياته.

ففي التاسعة والعشرين، كانت سنوات عديدة من حياته قد انحصرت في القلق على مصير الحرب، وكان يعلم ان التكيف مع حياة جديدة مختلفة تماماً سيكون في غاية الصعوبة. وكان في الواقع، قد اكتسحته التسلية في باريس بعد مشقات واخطار ساحات القتال، وكان قد ذهب إلى هناك بصحبة الدوق أوف ويلينغتون من كامبري حيث كان جيش الاحتلال متمركزاً.

لقد حيرته السرعة التي استطاع بها الفرنسيون تكييف انفسهم ما بين ليلة وضحاها مع السلام بعد هزيمة نابوليون بونابرت.

وهكذا عادت باريس مدينة السياحة، ولن يكون الماركيز شخصاً عادياً إذا هو لم يستمتع بكل ذلك أثناء عطلاته.

وقد تعرّف حينذاك باللايدي كارولين ستانديش.

كانت ذات اخلاق غير عادي، وقد أعجبت به منذ اللحظة التي وقعت عيناها فيها عليه.

كانت ترملت منذ كانت في الحادية والعشرين وقد

استفادت من كونها تمت بصلة القرابة إلى اكبر العائلات الارستقراطية في انكلترا.

وقد أوصلها نفوذ البعض من السفر إلى باريس حالما وضعت الحرب أوزارها. ولأنها كانت غنية، فقد كانت الحفلات التي اعتادت إقامتها محل تهافت الكثيرين.

لم يكن الماركيز متأكداً كيف حدث ذلك بالضبط ولكنه وجد اللايدي كارولين بجانبه حيثما ذهب، فكان يقابلها يومياً دون أي تخطيط منه لذلك، وإصرارها وحده هو الذي جعل رؤيته لها يتكرر كل يوم، ولم يدرك إلا بعد فوات الأوان أنها لم تكن تنشد صداقته، بل الزواج.

بينما هو قد كان صمم، أثناء الحرب، على ألا يتزوج إلا بعد سنوات.

فقد كان يسمع الكثير، ليس من اصدقائه فقط، بل من الرجال الذين يعملون تحت قيادته، عن طريقة حياة الناس.

فقد أخبره مرة أحد زملائه الضباط، بمرارة: «لقد وثقت بها، ليس فقط بالنسبة إلى بيتي، وأموالي، وأولادي، بل بالنسبة إلى قلبي أيضاً.»

ثم تابع كلامه محدثاً الماركيز عما حدث بالضبط.

كان الماركيز ضابطاً محبوباً، ما جعل رجاله يثقون به ويدلون إليه بمتاعبهم.

كان أحد رجاله قد حدثه مرة: «لقد هربت مني، وقد كتبت إلى أمي بأنها اخلت المنزل من كل شيء كنت قد اشتريته لأجلها.»

وكان هناك عدد لا يحصى من الرجال الذين كانوا يتكلمون ليخففوا من متاعبهم اليومية.

عند ذلك أخذ الماركيز يتساءل عما إذا كان هذا الأمر طبيعياً، فهو لا يتذكر أن أمه والتي كان شغوفاً بها، قد اهتمت بأمر ما غير عائلتها. وحدث نفسه بأنه لن يتزوج إلا من فتاة أحبته لشخصيته فقط.

وهكذا كان مع اللايدي كارولين، ولكنه لم يدرك أنه يقف على شفا منحدر خطر، إلا بعد أن دار الحديث حول عودته إلى الوطن.

وكان قد قال لكارولين: «أرجو أن يكون في إمكاني الذهاب في الشهر القادم.»

كانا يتناولان العشاء في المنزل الذي كان استأجره مع أحد زملائه الضباط في باريس، إذ كان يشعر بالسأم لإقامته في السفارة الانكليزية مع الدوق.

فقد كانت الفنادق غير شائعة عملياً، إذ أنها كانت حقيرة غير مريحة.

وكان المنزل الذي وجده صديقه يعود إلى أحد حديثي الثروات في عهد نابليون، والذين كانوا محط ازدراء وتجاهل الفرنسيين من انصار النظام القديم.

وكان أثاثه غالي الثمن، أما الخدم الذين كانوا مسؤولين عنه، فقد شعروا بالسرور لأخذ رواتبهم من رجلين انكليزيين بانتظام ودقة.

وكان صديق الماركيز نادراً ما يخرج من المنزل، وهكذا وجد الماركيز نفسه يتناول العشاء مع اللايدي كارولين بشكل مستمر.

وكان لا يجد بداً من الاعتراف بأنها كانت تبدو شديدة الذكاء.

فقد كانت اكتسحت لندن كالعاصفة منذ لحظة دخولها المجتمع وذلك لكونها ابنة الدوق أوف هال، وسرعان ما تزوجت رجلاً لا يقل عنها نبلاً وعراقة أصل.

كما كان ثرياً للغاية.

وعندما قتل، لم يسبب لها ذلك أي إزعاج، ذلك أنها كانت قد وجدته ثقيل الظل، وقبل ان يموت كانت قد ابتدأت تمضي نهارها مع عدد من الصديقات.

كانت كارولين ستانديش من الحكمة بحيث أدركت ان جمالها لن يدوم طويلاً.

وكان إسرافها، سواء في انكلترا أم في فرنسا، قد بدد من ثروتها مقداراً لا بأس به.

وهكذا كانت تتطلع إلى زوج ثري وذي مركز مرموق في وقت واحد، ومَنْ هناك أحسن من الماركيز؟

كان شعرها اللامع يتألق في ضوء الشموع. كما كان ثوبها، بطرازه العالي الخصر والذي ارتدته في البداية الإمبراطورة جوزيفين، كان يظهر الكثير من اناقتها.

وبعد أن اعلن الماركيز عن قرب عودته إلى الوطن، قال بلهجة عفوية: «هل ستبقين هنا؟»

فنظرت إليه اللايدي كارولين بعينيها الواسعتين بدهشة، ثم قالت بنعومة: «لا بد أنك تعلم، يانيل، بأنني ذاهبة معك.» فجمد الماركيز في مكانه.

كان شديد الاعجاب بجمال كارولين حقاً، ولكنه لم يكن

يرغب في الوصول إلى لندن مصطحباً إياها كجزء من أمتعته.

فقد كان يعلم أنه سيكون بانتظاره ليس منزلاه فقط، بل أسرته كذلك. وهو يدرك جيداً مبلغ الصدمة التي ستصاب بها جدته وعماته واقرباؤه واصدقاؤهم جميعاً، وذلك عندما يرونها.

ساد صمت، عادت بعده تقول: «إنني احبك، وحيث أنني لا استطيع متابعة حياتي من دونك، فأنا واثقة من انك لا تستطيع متابعة حياتك من دوني.»

وإذ لم يجد الماركيز مثل هذا الحديث مناسباً على مائدة العشاء، فقد سكت.

وكانت هي أذكى من أن تتابع ذلك الحديث الذي أدركت أنه شكل صدمة بالنسبة إليه.

وبدلاً من ذلك، استعملت كل ما تعرفه من طرق لكي تؤثر عليه.

وبعد ذلك، وفيما كان يوصلها إلى منزلها، سألته: «كيف بإمكان أي شخص أن يظفر بحبيب أروع مني ومنك، يا عزيزي؟ سنكون في غاية السعادة معاً.»

فانتبه الماركيز إلى ما في كلامها من خطورة. لقد أدرك أن كارولين اختارت هذه اللحظة بالذات.

فحمل نفسه على التثاؤب وهو يقول: «يجب أن أعود. فالدوق يريدني أن اتناول معه طعام الإفطار.»

فتوقف الماركيز، وهو يقول بلهجة عابرة: «ثمة شيء واحد أكرهه، وهو الحديث في السياسة على مائدة الإفطار.»

فقالت متذمرة: «انك لا تسمع ما أقول.»

أجاب: «انا آسف، ولكنني متعب فعلاً.» وقف الماركيز عند الباب وهو يقول: «تصبحين على خير يا كارولين.» ثم استدار عائداً رغم احتجاجها على ذلك، وكانت عربته بانتظاره في الخارج، فاستقلها عائداً إلى حيث يقيم.

وكان أثناء ذلك، يتساءل بذعر كيف يتمكن من تجنب الزواج من كارولين ستانديش.

لقد كان يعلم تماماً ان غباءه هو الذي جعله يصل إلى هذا الحد.

ذلك أن الناس في باريس قد قرنوا اسميهما معاً الآن. وكان هذا طبعاً نتيجة خطة وضعتها كارولين.

ولا شك ان هذه الاخبار يتناقلها الناس في لندن كذلك.

إنه يرى الآن، بعد فوات الأوان، أنه كان بإمكانه ان يمنعها من ملازمته على الدوام، ومن الحديث كذلك عن حياتهما.

ولكن، هل هناك امرأة لا تتكلم؟ لقد كانت كارولين من الذكاء بحيث تتمكن من استخدام الرأي العام ساعة تشاء.

وعندما أوى إلى فراشه، كان مايزال يفكر بقنوط بما عليه أن يفعل.

اخذ يقلب الأمور في ذهنه، وأيقظه خادمه باكراً، فارتدى ثيابه العسكرية، ثم أسرع إلى السفارة الانكليزية، وشعر بالإرتياح وهو يرى نفسه على مائدة الافطار وحده مع الدوق.

واخذا يناقشان بعض العروض التي تقدم بها الفرنسيون الذين كانوا يقومون بكل ما في وسعهم لإنقاص حجم جيش الاحتلال.

وفجأة، عرضت للماركيز فكرة، فقال: «انني اتساءل عما إذا كان ممكناً ان تنظر في أمر إرسالي إلى لندن في أقرب وقت ممكن، يا سيادة الدوق.»

فنظر إليه الرجل بحدة، فعلم الماركيز أن الدوق قد أدرك أن سؤاله هذا يخفي غرضاً في نفسه.

وسأله هذا: «هل تريد العودة إلى الوطن؟»

«نعم، إذا كان ممكناً لك الإستغناء عني.»

ففكر الدوق لحظة، ثم قال: «إنني سافتقدك، سافتقدك طبعاً.» وابتسم ثم تابع يقول: «ولكنني شاكر لك عدم رفضك البقاء معي هذه السنة بينما لك كل العذر في ضرورة عودتك للاهتمام بأمورك الخاصة.»

فحنى الماركيز رأسه بينما تابع الدوق يقول: «اظن بإمكاني التكهن بالسبب الذي يدعوك إلى الذهاب، وإذا شئت نصيحتي إرحل دون وداع مؤلم وذرف دموع.»

لوى الماركيز شفتيه إذ كان يعلم أن هذا ما كان يؤلم الدوق على الدوام، وقال: «هذا لطف بالغ من سيادتك. وإذا أمكنني التصرف حسب نصيحتك، فهذا يجعل الأمور اكثر يسراً.»

فقال الدوق: «هذا حسن، إنني آمرك إذن بالسفر غداً.»

فتمتم الماركيز شاكراً.

وعاد الدوق يقول: «إنني سأرسل معك رسائل معينة إلى رئيس الوزراء، وحيث انها رسائل سرية، بطبيعة الحال،

عليك ان تتدبر أمور سفرك فلا يدري به احد إلاّ بعد رحيلك.»

فقال الماركيز: «اشكرك. اشكرك ألف مرة.»

لقد سارت الأمور بسهولة اكثر عما كان يتوقع.

كان التحفظ على الأسرار من الفرنسيين امراً شائعاً بين رجال الدوق ويليفتون حتى ان احد الظرفاء قال مرة: «انني اخاف من ظلي نفسه.»

تناول الماركيز تلك الليلة عشاءه مع كارولين، ومع عدد من الضيوف.

كانت هي في أحسن حالاتها، تسبغ من ظرفها خفة ظلها على الجميع.

ولكن الماركيز كان يعلم ان هذا ليس سوى تظاهر منها، فقد كان واثقاً من الطريقة التي كانت تنظر فيها إليه من تحت اهدابها، كان واثقاً من أنه هو المقصود بكل ذلك.

فقد كانت تريد أن تريه كيف سيكون ترحيبها بأصدقائه، وأنها إذا كان بامكانها ان تتالق بهذا الشكل في بلد اجنبي، فكيف سيكون حالها إذن في قصره في الوطن؟

وكانت كارولين قد زارت قصر واين مرة مع والدها ولم تنسه قط بعد ذلك.

كان الماركيز يدرك مدى تلهفها إلى ان تصبح سيدة قصره، وأن تجلس عند رأس المائدة متحلية بمجوهرات العائلة المتوارثة.

غادر الحفلة حوالي الواحدة صباحاً، ولكنه كان يعلم ان كارولين قد شعرت بالضيق لعدم بقائه مع الضيوف حتى نهاية السهرة.

ولكنه قال باقتضاب: «يجب عليَّ الاستيقاظ باكراً.»

وكان يدرك أنها كانت تظنه يتظاهر بذلك، أو لعله سيتناول الإفطار مع الدوق مرة أخرى.

همست وهي تودعه: «رافقتك السلامة.»

في أحيان كثيرة كان يزورها عند الصباح، بناء على دعوتها.

كانت، في العادة، لا تتحلى بسوى قلادة من الزمرد أو لؤلؤة سوداء تظهر بياض وجهها.

ولم يدّع الماركيز لحظة واحدة أنه لم يكن معجباً بها.

ولكن شؤون القلب كان شيئاً، والزواج شيئاً آخر.

فهو لم يكن ليتصور زوجته، سيدة قصر واين، تستقبل اناساً غرباء في منزلها، بينما الخدم يكتمون ضحكاتهم.

وعندما غادر باريس إلى كاليه، كان يعلم أنه كان يهرب منها.

ولكنه، على كل حال، حدث نفسه بأن حكمة الدوق هي التي جعلته ينسحب من مواجهة ذلك الموقف، وإلا لكان عليه أن يمضي يوماً آخر في ذلك النضال.

وحال وصوله إلى لندن، وجد ألف شيء عليه أن يقوم به.

قبل كل شيء، اخذ الرسائل السرية إلى رئيس الوزراء والذي كان يريد أن يسمع الكثير عن جيش الاحتلال مما لم يكن ليذكر في التقارير التي يتسلمها.

ثم قرر الماركيز ان يقوم بزيارة إلى الأمير، وإلا، فسيسجل اسمه في الدفتر الأسود في قصر الأمير.

سر الأمير لرؤيته. فقد كان الماركيز حديث العهد باللقب،

كما انه يبعث على الاهتمام وهذا ما كان صاحب القصر الملكي ينشده.

وهكذا اصر عليه بالبقاء معه لتناول الغداء، ثم العشاء ومقابلة اصدقائه.

وكذلك طلب من الماركيز مرافقته إلى ميدان الخيل في ابسوم وإلى استعراض اللعب بالسيف في نادي جاكسون الرياضي.

وفي الفترات التي تخللت هذه النشاطات، تعاقد الماركيز مع خدم يديرون منزله في ساحة بيركلي وكذلك اشترى عدداً من الجياد.

وسرعان ما انهالت عليه الدعوات بعد أن سمع رجال المجتمع بعودته.

وكذلك كان هناك عدد من الأصدقاء القدماء يجتمع بهم في النادي، والذين اخذوا يقترحون ما عليه ان يرى ويقابل.

حدثوه عن المطربين في كوفن غاردن.

والمآكل الطيبة التي يقدمها البيت الأبيض والتي لم يتذوقها قبل ذهابه إلى الحرب.

كان الأمر أشبه بما رآه في باريس، ولكن الحفلات كانت كئيبة بعض الشيء.

وتساءل وهو يفكر في كارولين، عما إذا كان قد نجح في الهرب منها فعلاً، أم انها ستلحق به إلى لندن.

وعندما لم يسمع خبراً بشأنها لمدة اسبوع تقريباً، فكر متفائلاً، في انها ربما وجدت باريس اكثر جمالاً من ان تستطيع هجرها، ولكنه، ما ان دخل النادي، حتى قال له احد

اصدقائه: «لقد سمعت لتوي ان احدى صديقاتك قد عادت إلى لندن.»

وكان في الطريقة التي قال بها ذلك، وما ارتسم على ملامحه من تعبير، ما جعل الماركيز يحبس انفاسه، فسأله:

«من تلك التي تتحدث عنها؟»

ولم يكن ثمة حاجة إلى سماع الجواب.

«كارولين ستانديش.»

وحالاً، اخذ الماركيز يعمل فكره، وحدث نفسه قائلاً: «سأذهب إلى الريف غداً صباحاً.»

الفصل الثالث

حملقت فاندا في السيد رشمان بدهشة، ثم هتفت: «الماركيز عائد؟ متى ذلك؟»

اتجهت نظرات السيد رشمان إلى رسالة بجانبه، وهو يجيب: «يقول انه سيغادر لندن نهار الاربعاء أي اليوم. وهذا يعني أنه سيكون هنا نهار الجمعة.»

تمتمت فاندا بشيء ما، بينما تابع هو يقول: «إن سيدي يطلب ارسال زوجين من أفضل الجياد إلى فندق داغنداك في غروسبري.»

نظر إلى فاندا وهو يضيف قائلاً: «تعلمين، يا آنسة فاندا، كما أعلم أنا، أن ليس لدينا في الاسطبل جياد صالحة لكي يقودها.»

كانت فاندا تعلم أن هذا صحيح، إذ بعد أن توفي الماركيز العجوز، كانت جياده قد ابتدأت تكبر في السن.

وهكذا، تدريجياً، قد أصبح معظمها في المرعى دون عمل، وما بقي منها كان لا يصلح إلا لركوب السائسين إلى القرية لشراء المؤن.

وإذ رأت القلق في عينيه، قالت بسرعة: «إنني أعلم أن سيدي سيسره جداً أن يرسل زوجين من جياده لاحضار الماركيز من آخر مرحلة من سفره.»

فقال: «سيكون هذا شهامة بالغة منكم. فأنا واثق من أن سيدي يحب أن يصل بفخامة وأبهة.»

وابتسم وهو يقول هذا.

خطر لفاندا أنه كان يتصور الماركيز، وهو يقول هذا، كما كان رآه آخر مرة... فتى في الثانية والعشرين، مليئاً بالحماسة، كما كان فارساً ممتازاً.

وتابع السيد رشمان يقول: «هنالك أعمال كثيرة يجب القيام بها، إذ أظن أن الماركيز قد نسي أن القصر كان مقفلاً والخدم غادروه ما بين مطرود ومتقاعد.»

فقالت: «إن باكستون يعيش في القرية.»

وكانت تتكلم عن رئيس الخدم الذي كان دوماً ذو شخصية متميزة.

ففي الماضي، كان المنزل بأجمعه يبدو وكأنه يدور حوله.

قال السيد رشمان: «لقد تذكرت هذا. من حسن الحظ أن السيدة ميدواي ما زالت حية.»

فسألته: «أتظنهما سيعودان.»

أجاب: «إنني واثق إذا أنت توسلت إليهما بذلك. إنهما على الأقل، سيقبلان بالحضور إلينا إلى أن نحضر من هما أصغر سناً منهما فيأخذا مكانهما.»

قالت: «أتريدني أن أطلب إليهما ذلك؟»

فأبدى بيديه إشارة أفصح من الكلام، ثم قال: «عندما تلقيت الرسالة التي حملها إلى السائس من لندن بأقصى سرعة، أخذت أتساءل عمن عسى أن يساعدني وكيف أصل إلى باكستون والسيدة ميدواي.»

وسكت لحظة، ثم أضاف يقول: «يمكنني طبعاً أن أحاول السير إلى هناك ببطء.»

فقالت: «إنك تعلم أنني أفعل كل ما تريد، وكم سيكون جميلاً أن يمتلىء قصر واين ويستلم الماركيز المسؤولية.»

فقال السيد رشمان بحزن: «أخشى ألاّ تكون الامور كما اعتادت أن تكون، ولكن تايلور وزوجته قد بذلا جهدهما.»

عند ذلك انتبهت فاندا إلى نسيانها أمر آل تايلور وذلك لشدة بهجتها لسماعها خبر عودة الماركيز.

وخصوصاً السبب الذي دعاها إلى زيارة السيد رشمان.

ولمعرفتها بكثرة ما يعتمل في رأسه من مشكلات شعرت بأنها لا تستطيع إضافة المزيد إلى متاعبه.

وحدثت نفسها بأنه، على كل حال، لن يستطيع القيام بشيء فيما لو رفض قطاع الطرق الرحيل، فالماكيز عائد وسيكون الامر إليه في حماية ممتلكاته.

نهضت واقفة، وهي تقول: «سأذهب لأتكلم إلى باكستون والسيدة ميدواي. وأظن بإمكانهما أن يوظفا من يشاءان من أهالي القرية.»

فأجاب السيد رشمان: «بإمكانهما أن يحضرا معهما أي شخص يسير على قدمين. وكل ما أرجوه هو ألاّ يكون القصر من القذارة كما أتوقع.»

فقالت: «لا تهتم بهذا الامر. قال تايلور انهما كانا رائعين في انجاز العمل، والنسوة اللاتي يقمن بتنظيف الغرف كل أسبوع قد جعلاها تبدو كما كانت تماماً في حياة الماركيز الأب.»

فتنهد السيد رشمان بارتياح: «هذا واحد مما يشغل ذهني، يا آنسة فاندا.»

فابتسمت، بينما تابع هو يقول: «هل لي أن أطلب منك رؤية ما إذا كانت السيدة جاكوبس قادرة على استلام المطبخ إلى أن أستطيع العثور على طاهية؟»

فأجابت فاندا: «إنها كبيرة السن جداً، ولكن بإمكانها أن تجلس وتدلي بإرشاداتها إلى الآخرين.»

وفكرت لحظة، ثم تابعت تقول: «إن السيدة تايلور هي طاهية ماهرة تماماً. وهناك عدة نساء في القرية يمكنهن المساعدة.»

هتف: «إنك بالغة الذكاء اشكرك جداً على مساعدتك.»

قالت ضاحكة: «ومن هناك سأنال مكافأتي. والآن سأذهب لأرى أولئك الثلاثة المهمين لراحة سيادته، وسأبلغك بما يقولون بعد ذلك.»

فصرخ: «أشكرك. أشكرك. وكذلك أخبري والدك بمقدار شكري.»

أسرعت فاندا بالخروج. فقد كانت تعلم، قبل غيرها مقدار العمل الذي أمامها.

فإذا كان القصر سيعود إلى عهده الاول، وستكون الخدمة للماركيز كما يتذكرها، كل ذلك يستلزم وقتاً.

لقد كانت مجرد فتاة صغيرة في العاشرة عندما ترك هو جامعة أكسفورد، وذهب إلى فرقة الحرس الملكي.

فقد كانت معروفة بأنها فرقة الاسرة.

وفي السنة التالية، عاد إلى البيت مرتين على الاغلب، ثم ترك انكلترا ولم يعد يراه أحد بعد ذلك.

ولكنه طبعاً، كان يراسل أباه، فكان هذا يري السير الكسندر، أباها، رسائله.

كان الرجلان يعلمان أن الفيسكونت الشاب، لما كان يدعى في ذلك الحين، كان يخوض غمرات الحرب.

وبدا لفاندا أن نجاته من إصابات عديدة حدثت له، كان اعجوبة كبيرة.

كانت تعلم أنه سيصاب بالذعر إذا هو عاد فوجد قصره ما زال مغلقاً، وتايلور وزوجته ممتلئين رعباً وقطاع الطرق يحتلون الجناح الغربي.

وكانت أثناء تفكيرها هذا، تسير مسرعة نحو القرية. وسرعان ما وصلت إلى كوخ صغير جميل حيث كان رئيس الخدم باكستون يعيش فيه بعد تقاعده. وكان هذا الكوخ، بالطبع من جملة أملاك أسرة واين.

كان مكتمل الاصلاح، حديث الدهان، كما كانت الحديقة تتالق بأزهار الربيع.

وحين كانت تصعد الطريق المؤدي إلى الباب الامامي، أخذت تتساءل عما إذا كان باكستون سيشعر بنفسه أكبر سناً من أن يقوم بما يراد منه. وفتح لها الباب.

رأته في صحة جيدة رغم أن شعره كان أبيض تماماً.

بادرها بقوله: «يا لها من مفاجأة سارة، يا آنسة فاندا. هل لك بالدخول؟»

فشكرته، ثم دخلت إلى غرفة صغيرة كانت هي المطبخ الذي اعتاد باكستون الجلوس فيه.

وفي الناحية الاخرى من المدخل، كانت تقوم غرفة

جلوس صغيرة جداً كانت تستعمل في المناسبات الهامة ولا تسع أكثر من أربعة أشخاص.

وحيث أنها كانت تعلم ما يتوقعه باكستون منها، جلست على مقعد كبير أمام الموقد. ثم قالت: «لدي خبر لك. لقد عاد الماركيز إلى انكلترا وسيصل إلى هنا يوم الجمعة.»

فهتف: «الجمعة؟»

أجابت: «نعم. وقد طلب مني السيد رشمان والذي يمنعه مرضه من القدوم إليك، أن أتوسل إليك أن تحضّر القصر لأجله.»

كانت تتحدث وهي تنظر بإمعان إلى رئيس الخدم، وللحظة، ظنت أنه سيرفض.

ولكنه ما لبث أن ابتسم، فبدا لها في عينيه تألق لم تره من قبل.

وسألها: «وهل يطلق السيد رشمان يدي، يا آنسة فاندا؟»

فقالت تطمئنه: «يمكنك أن تحضر أي شخص أو أي شيء تريده. وأنت تعلم كما أعلم، أن ليس ثمة من يمكنه تجهيز القصر مثلك.»

فقال: «هذا حسن جداً، يا آنسة. سأقوم بكل ما في وسعي. ولكنني سأحتاج إلى الكثير من العون.»

أجابت: «إن كلمات السيد رشمان حرفياً، هي أن بإمكانك أن تحصل على أي شخص يسير على ساقين.»

فضحك. وأدركت هي أنها قد ربحت المعركة.

ونفس الحديث تقريباً تبادلته، بعد ذلك، مع السيدة ميدواي في كوخها والذي كان مماثلاً لكوخ باكستون.

ولكن، لكونها امرأة، فقد احتاجت إلى مزيد من الاقناع وكذلك من الاطراء.

قالت لها فاندا: «ومن غيرك يعرف كم يوضع على السرير من الملاءات، وكيف يقوم بتهويتها جيداً؟»

وسكتت لحظة، ثم أضافت تقول: «والأكثر من هذا، إذا أنت رفضت فسيقلق السيد رشمان لذلك حتى الموت.»

وأخيراً، قالت السيدة ميدواي على كره منها: «لا بأس، سأقوم بما أستطيعه. إنني أكبر سناً الآن من أن أتعامل مع فتيات شابات يعتبرن أنفسهن أكثر معرفة مني.»

وكانت هذه صرخة طالما تردد صداها على مر الزمن.

ووافقتها فاندا على أن الشابات هن مغرورات وغير حسنات السلوك كما ينبغي.

عندما تركت الكوخ، أخذت السيدة ميدواي تفكر في من يمكنها أن تستعين به من فتيات القرية.

كانت فاندا تعلم أنه بوجود باكستون والسيدة ميدواي في القصر، سيكون الماركيز في أتم راحة.

ثم ذهبت لمقابلة السيدة جاكوبس.

وافقت هذه على الذهاب إلى القصر في حال تمكنوا من نقلها إلى هناك في عربة.

ولم يعد إلى ذهن فاندا مشكلة قطاع الطرق، إلا بعد أن عادت إلى منزلها.

وأخذت تتساءل عما عسى أن تفعله بهذا الشأن.

وقبل أن تصل إلى منزلها، عادت إلى ذهنها قصة مخيفة كان أبوها قد حدثها بها منذ سنوات. وهي تتلخص في أن

قاطع طريق اسمه واطسون كما تظن، أخذ يعذب تاجر ماس لكي يعطيه نصف ثروته.

وكان واطسون وشركاؤه المتواطئون معه قد قبضوا على التاجر عند عودته إلى بيته في ضواحي المدينة.

ومن ثم أخذوه إلى مخزن غلالٍ خالٍ في الريف. وهناك أرغموه بواسطة التهديد بالسكين وفوهة المسدس بأن يحرر لهم شيكاً بآلاف الجنيهات.

وحيث أن مظهر واطسون كان حسناً للغاية، فقد سلمه المصرف المال دون أن يتساءلوا عن سبب دفع مثل هذا المبلغ الكبير.

ثم هربوا تاركين أسيرهم مقيداً عاجزاً في بقعة منعزلة. ولم يكتشف وجوده سوى بعض الاولاد الذين كانوا يلعبون في ذلك المكان.

كان حياً، ولكنه كان على وشك الموت جوعاً. أما العذاب الذي كان تلقاه، فقد أثر على صحته، وما لبث أن توفي بعد ذلك بعامين.

وقد قبض فيما بعد على قاطعي الطرق أولئك وحوكموا بتهمة السرقة.

لقد تذكرت فاندا الآن سماعها هذه القصة بين قصص عديدة تماثلها، فامتلأت خوفاً.

وكانت قد نسيتها حتى هذه اللحظة.

وأخذت تتساءل عما إذا كان من الممكن أن يحدث مثل هذا للماركيز.

صحيح أنه سيكون هناك عدد كبير من الخدم في القصر، ووصولهم قد يبعد قطاع الطرق عنه، ولكن

الماركيز لا بد له من أن يجول في أملاكه على ظهر حصانه.

وهو لن يستطيع القيام بذلك إلا إذا رافقه عدد من سائسي الخيل يفوق عدد قطاع الطرق.

وفكرت الآن في مدى غفلتها عن سؤال تايلور عن عدد قطاع الطرق أولئك.

ولكن، على كل حال، ربما لم ير الزوجان منهم سوى اثنين أو ثلاثة، بينما قد يكون الآخرون في الجناح الغربي.

وحدثت نفسها بأن الماركيز قد يأتي لكي يقع في مصيدة تنتظره.

وتساءلت عما عسى أن تفعل بالنسبة لهذا.

كانت قد وصلت الآن إلى بيتها، فتوجهت نحو الاصطبل حيث وجدت السائسين المسنين، فأخبرتهما بأن عليهما أن يأخذا عربة أبيها التي يجرها اثنان من أفضل جياده، وذلك إلى فندق (داغنداك) في غروسبيري.

وبدا السرور واضحاً على السائسين. وقال كبيرهما: «إن جيادنا بحاجة إلى التريض حقاً.»

وقال الثاني: «لقد كنا أمس نتحدث في أن الجياد قد بدأت تسمن. والجواد السمين هو كسول عادة.»

ركضت فاندا إلى بيتها.

كان أبوها يعمل في كتابه، فسر بما أخبرته به. وقال: «لقد كنت أتساءل متى سيعود ذلك الشاب إلى منزله. إنني أتطلع بشوق إلى الحديث معه.»

فقالت تعارضه: «ولكن حديثه سيكون عن الحرب فقط. إنك تعلم يا أبي أن ثمة الكثير من العمل في الأملاك تنتظر

الماركيز، والمزارعون يسألون منذ وقت طويل عن موعد رجوعه.»

فقال السيد الكسندر: «لقد كان نيل شاباً طيباً على الدوام. وقد أثبت أنه جدّي ممتاز فأنا لا أخاف المستقبل.»

تمنت فاندا لو أن بإمكانها أن تقول الشيء نفسه.

وبعد أن انتهيا من العشاء، صعدت إلى غرفتها.

ومرة أخرى، أخذت تتساءل عن الكيفية التي تستطيع بها أن تحذر الماركيز من قاطعي الطريق، وماذا عسى أن يقوم به نحوهم.

وطبعاً، سيكون من المجازفة أن يواجههم شخصياً، ورأت أنه سيظن أن من الاصوب أن يتصل بثكنة الجيش.

ذلك أن بإمكانه أن يطلب جنوداً للقبض على قطاع الطرق الذين تعدوا على ممتلكاته.

وساورها شعور مخيف بأن هذا العمل قد ينتهي بتبادل اطلاق النار.

وإذا حدث هذا، فلا بد أن يجرح ويقتل رجال عديدون.

ولكنها عادت ففكرت في أن قطاع الطرق لن يكونوا من الحماقة بحيث يبقون في الجناح الغربي. وهم سيرحلون حالما ينتهبون إلى أن نشاطات كبيرة قد ابتدأت في القصر.

وهذا يعني أنهم قد يذهبون إلى الغابات، خصوصاً غابة المدرس، حيث سمعتهم يتكلمون.

عند ذلك عادت إلى ذهنها قصة تاجر الماس.

ومرة أخرى، تأكدت من أن الماركيز كان مقبلاً بسرعة نحو خطر داهم.

وأخيراً، حدثت نفسها بحزم بأن هناك شيئاً واحداً يمكنها أن تقوم به، وذلك بأن تحذره قبل قدومه إلى القصر.

وعجبت كيف لم تفكر في ذلك من قبل.

فإذا كان الجوادان سيرسلان إلى غروسبري، فبإمكانها هي أيضاً أن تفعل ذلك.

فالسائسان سيأخذانهما غداً، وهكذا سيرتاحان الليل في فندق داغنداك قبل أن يقودهما الماركيز إلى بيته.

فإذا أمكنها الذهاب يوم الجمعة حال بزوغ الفجر، على صهوة الحصان كينفيشر، فستصل إلى الفندق في وقت الافطار قبل رحيل الماركيز.

وأخذت تعيد التفكير بعناية.

ثم قررت، في حالة ما إذا فاتتها رؤيته، أن تسير على جانب الطريق طوال الخمسة أميال، فهو عند ذلك، لن يستطيع المرور دون أن تراه.

وعند الصباح الباكر، ذهبت إلى القصر لترى ماذا يحدث.

وجدت السيدة تايلور تحاول أن تنظم ما كاد أن يكون جيشاً من النساء كن قد جئن من القرية بناء على تعليمات من السيدة ميدواي.

وكانت أصواتهن جميعاً تعلو بالثرثرة عن الماركيز.

وأدركت فاندا، وهي تسير بينهن أن السيدة تايلور لم تذكر لهن شيئاً عن قطاع الطرق.

وجالت في أنحاء الغرف.

لقد فتحت الآن مصاريع النوافذ كما نظفت هذه، وقد بدا لكل شيء في أشعة الشمس المتدفقة، حلواً بديعاً.

وجدت السيد تايلور وحده في غرفة المؤونة يفرز أنواع الطعام التي جيء بها من المزارع.

حملان صغيران، ست بطات سمينة، دزينة من الدجاج وجبل من البيض.

سألته بصوت خافت خوفاً من أن يسمعها أحد: «هل... ذهبوا؟»

لم يكن ثمة حاجة للافصاح عمن تعنيهم.

فأجاب بحذر: «لقد كانوا هنا الليلة الماضية.»

وعندما تركته، سارت إلى الناحية الخلفية من الجناح الغربي متنقلة ببطء فوق الاعشاب الكثيفة.

كانت النوافذ السفلى مغلقة، فوقفت تحت واحدة منها تعود إلى غرفة الجلوس الرئيسية.

أنصتت باهتمام لتسمع ما قد يصدر عنهم من صوت أو حركة.

ولكنها لم تسمع شيئاً، فأملت أن يكون قطاع الطرق قد رحلوا.

ولكنها لم تكن واثقة مما إذا كان ذلك سيجعل الامور أفضل أم أسوأ.

فإذا كانوا في الغابة ينتظرون وصول الماركيز، فما الذي بامكانه عمله إزاء رجال مسلحين؟

وما لبثت أن عادت إلى بيتها وقد ازدادت تصميماً على أن تحذر الماركيز قبل أن يصل إلى القصر، فقد يغير رأيه ويعود إلى لندن.

أو قد يذهب إلى ثكنة الجيش يطلب العون.

ولم تستطع تحمل التوقعات عما يمكن أن يكون تصرفه، ولكنها كانت تعلم أنها على صواب في تحذيره لكي يكون مستعداً.

أخذ السيد السكندر يتحدث عن الماركيز طوال فترة الغداء. وكان مسروراً باعارته جياده.

كان يستعيد ذكرياته مع الماركيز الاب والاشياء التي كانا يتحدثان عنها قبل وفاته.

ورأت أن الماركيز كان حكيماً تماماً في عزمه على قضاء آخر ليلة من رحلته في الفندق.

وإلا لكان أفسد الأعمال التي تشمل البيت لو أنه وصل آخر النهار.

وكان هذا حري بأن يجعل وصولها إليه صعباً.

شعرت بالذنب لاخفائها سر وجود قطاع الطرق. ولكن، ما الذي يستطيعه أبوها أو السيد رشمان دون مساعدة؟ الجواب هو، لا شيء.

وهكذا شعرت بأن الحق معها في معالجتها المشكلة وحدها. فهي إذا أنقذت الماركيز فهم جميعاً سيرون أنها كانت على حق في ذلك.

• • •

لم يجد الماركيز مغادرته لندن صباح الاربعاء بالسرعة والسرية، سهلاً كما كان يظن.

فقد كان عزم على البدء برحلته بعد الافطار، ولكن الخادم أيقظه ليقول ان ثمة رسالة له من رئيس الوزراء.

كانت رسالة مستعجلة لا يمكن تجاهلها.

لقد أراد رئيس الوزراء منه أن يوضح شخصياً لعدة وزراء آخرين مطالب الفرنسيين بالنسبة إلى جيش الاحتلال البريطاني في فرنسا.

وأيضاً ليخبرهم عن عزم القائد الدوق أوف ويلينغتون على إعادة عشرة الآف جندي إلى الوطن.

ولم يكن من الممكن أن يرفض الماركيز مثل هذا الطلب. وهكذا ذهب إلى مقر رئاسة الوزارة، آملاً ألاّ يتأخر طويلاً.

ولكنه كان مبالغاً في تفاؤله. فقد استمر الاجتماع إلى وقت الغداء، ولم يستطع أن يرفض تناول الطعام مع رئيس الوزراء.

وعندما عاد إلى منزله في ساحة بيركلي، أدرك أن عليه أن يؤجل سفره إلى اليوم التالي.

وقد أزعجه هذا، ولكن لم يكن الامر بيده.

وهكذا، ذهب إلى النادي ليجد، كما توقع، عدداً من أصدقائه هناك.

سأله واحد منهم: «هل أنت ذاهب إلى ديفونشاير هذه الليلة؟ إنها حفلة صغيرة فقط، ولكنني دوماً أشعر بالمرح في أية حفلة تقيمها الدوقة.»

أجاب الماركيز متهرباً: «إنني لم أقرر بعد.»

فقال صديقه بلهجة ذات معنى: «ولكن البعض سيشعر بخيبة الامل، لأن مقعدك سيكون إلى جانبها في قصر الأمير.»

فتذكر الماركيز أن الامير كان قد دعاه للعشاء معه قبل حفلة ديفونشاير.

وكان هو قد قبل الدعوة.

ولكنه قرر الآن أن عليه أن يرفض هذا.

تلك أن كارولين ستعود إلى سابق عهدها معه. لكي تجعل الناس حولها ينتبهون إلى تصرفاتها، وذهابه إلى قصر الأمير سيضيف مزيداً من ثرثرة الناس عنهما وهذا، كما يعلم، قد أصبح أمراً خطيراً: فكلام الناس يمكنه أن يدفع الرجل إلى زواج لا يريده، بكل سهولة. فالثرثرة ترغمه على السير في طريق يجعل الهرب منه غير ممكن.

وتساءل بذعر: ماذا بإمكاني أن أفعل؟

وتمنى لو استطاع الرحيل إلى الريف هذا الصباح كما كان قرر.

وعاد إلى منزله بسرعة ليجلس ويحرر رسالة اعتذار إلى الأمير، قال له فيها انه أصيب فجاة بانفلونزا حادة معدية ما جعل من غير الممكن بالنسبة إليه حضور حفلة العشاء، وأنه لا يهتم بنفسه ولكنه يعتبر نفسه في غاية الاهمال إذا هو نقل العدوى إلى الامير الذي لا يستطيع أن يحتجب عن زواره الدائمين.

تلك أن الأمير كان يهتم بصحته كثيراً. فكان الماركيز يدرك، لهذا السبب، أن رفضه تناول العشاء مع الامير سيعتبره هذا من باب الايثار وعدم الانانية وليس الاهانة.

ثم أرسل الرسالة مع خادم إلى قصر الامير، ليتناول بعد تلك العشاء بمفرده بعد أن طلب منه أن يوقظه من نومه في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، وأن تكون عربته

التي يجرها جوادان مطهمان كان اشتراهما لتوه، جاهزة في السادسة والنصف.

كان خادمه قد سبقه مع الامتعة، كما أن السائسين قد غادرا في الصباح الباكر إلى الفندق الذي سيغير به الماركيز جواديه، مصطحبين أربعة من الجياد.

كما سافر مع خادمه سائس ثالث، وإذ كان أيضاً طاهياً ممتازاً، فقد أراده الماركيز أن يتأكد من أن الاطعمة التي ستقدم إليه هي شهية وطيبة.

كان الماركيز يرى أنه سيصل إلى قصره في وقت الغداء من اليوم التالي.

واستيقظ على صوت باب غرفته يفتح، فظنه الخادم قد أتى ليوقظه.

وكانت عيناه شبه مفتوحتين عندما انتبه إلى شخص يقف إلى جانبه وهو يشعل الشموع وذهل وهو يرى أن هذا الشخص لم يكن سوى كارولين.

كانت تحمل في يدها شمعة علم بأنها حملتها معها من الممر.

هتف: «كارولين. لماذا أنت هنا في هذا الوقت؟»

فأدارت رأسها إليه باسمة.

أجابت قائلة: «عندما لم تحضر حفلة العشاء في قصر الامير، ولا الحفلة في ديفونشاير، شعرت بأن علي أن آتي لرؤيتك.»

قال الماركيز: «لا بد أنك مجنونة لقدومك إلى هنا. فكري في ما سيقوله الناس إذا علموا بذلك.»

أجابت: «إن الشخص الوحيد الذي يعرف أين أنا الآن هو خادمك الخاص.»

«وسائق عربتك؟»

فهزت كتفيها: «إنني أدفع لخدمي لكي لا يتكلموا، ثم ما أهمية الخدم؟»

لم يتكلم الماركيز، بل أخذ ينظر إليها، ليقول في النهاية: «اخرجي يا كارولين وأحسني سلوكك. يمكنك أن تتصرفي بمثل هذه الامور في باريس وليس في لندن.»

فسألته: «ومن يمنعني من ذلك؟»

فقال: «إنك تتصرفين بشكل ممقوت، يا كارولين. ليس لديك الحق في الحضور إلى منزلي بهذه الطريقة وأنا أصر عليك بالخروج في الحال.»

فضحكت كارولين، دون ان تغادر منزله كما طلب منها.

* * *

بعد مجادلة عنيفة استطاع الماركيز أن يقنع كارولين بالخروج.

سألته: «هل ستدعوني إلى الغداء؟»

«إنني ذاهب إلى الريف.»

«إلى الريف؟ إذن سآتي معك بالطبع.»

فأجاب: «كلا يا كارولين.»

«لماذا؟ إنك تعلم انني مشتاقة لرؤية قصر واين.»

«لا أظنك ستسرين هناك. فقد كان مقفلاً إلا من خادمين يعتنيان به، وذلك منذ وفاة والدي.»

فقالت: «لا يهم المنزل.»

فتابع يقول: «وهناك أتربة كثيرة في كل مكان. كما أن

الماء يتسرب من السقوف، والأسرة مبتلة وطبعاً، لن تستطيعي النوم من حركات الفئران حولك.»

وأدرك من صرخة كارولين، أنها تكره الفئران.

وهتفت: «لا يمكن أن تكون الامور هناك سيئة بهذا الشكل.»

«بل أتوقع أنها ستكون أسوأ. وعندما أجعل كل شيء هناك يعود كما كان قبل أن أذهب إلى الحرب، عند ذلك ربما أقيم حفلة في القصر.»

فاستدارت نحو المرآة وقد تألقت عيناها.

«حفلة في القصر؟ سأكون المضيفة إلى جانبك، يا نيل. إنها فكرة رائعة وسندعو الامير ليكون أحد ضيوفنا. لقد قال هذه الليلة أثناء العشاء انه متشوق إلى ذلك.»

جمد الماركيز في مكانه، فقد أدرك جيداً ما كانت كارولين تعنيه وهي تقول أحد ضيوفنا.

فإذا كانت قد قالت هذا للأمير، فهو سيعتقد أن خطوبتهما على وشك أن تعلن.

وانزعج من كلامها.

وكأنما خافت هي من أن تكون تمادت في الامر، فقالت: «إنني لم أذكر إلى الامير باننا مخطوبان، ولكنني أظنه اشتبه في الامر.»

فقال بقوة: «ولكننا لسنا مخطوبين. وكما سبق وقلت لك، يا كارولين، ليس لدي نية للزواج قبل أن يصبح كل ما أملكه متكاملاً.»

أجابت: «عند ذلك سأكون لك زوجة متكاملة.»

واتجهت نحو الباب وهي تقول: «إنني انتظر خبراً منك قبل نهاية الاسبوع القادم. وإلا، فسأحضر إليك دون دعوة وقد أحضر معي الامير.»

ولم تنتظر جواب الماركيز، بل انسلت خارجة من الغرفة، وأغلقت الباب خلفها.

عاد يلقي بنفسه على الوسائد خلفه وقد تملكه الغضب، وهو يسأل نفسه للمرة المائة، ماذا بإمكانه أن يفعل مع كارولين؟

إنه يراها تستعمل ضده كل سلاح ممكن.

ولم يكن يعلم كيف بإمكانه أن يمنع الموت المعنوي من أن يلحق به.

واستخدامها الأمير وسيطاً لمصلحتها، كان طبعاً ورقة رابحة في يدها.

فقد كان الأمير شغوفاً دوماً بتمثيل دور كيوبيد الذي يجمع قلوب المحبين، وأن يكون هو موضع الاسرار.

وإذا استعملت كارولين أساليبها الوقحة، وأحب أن يظهر كرمه، فقد يعرض أن تقام حفلة تلقي التهاني بعد الزواج، في قصره.

وكان يستمتع جداً بحضور حفلات الزفاف.

أخذ الماركيز يئن وقد أغمض عينيه.

إنه يرى الفخ الذي أمامه يكاد يطبق عليه.

وأصبح القبض عليه وأسره بحيث لن يكون ثمة مهرب له. أصبح هذا الآن مسالة وقت فقط، إذ سيحدث عاجلاً أم آجلاً.

ستكون كارولين زوجة له، وسيأكل أصدقاؤها على مائدته وينامون في منزله.

وأثناء ذلك، سيظنون أنهم يستغفلونه، وتمتم ثائراً، كلا، لا أستطيع احتمال هذا.

وتمنى من كل قلبه لو أنه ما زال يقاتل نابوليون، وأن الحرب لم تنته قط.

الفصل الرابع

ذهب السير الكسندر إلى مكتبه، بينما ذهبت فاندا إلى الاسطبل لكي تتحدث إلى السائسين قبل أن يغادرا إلى غروسبري.

كانت تعلم أن عليهما أن يسيرا بالجوادين ببطء.

وأخذت تحسب في ذهنها انهما إذا ذهبا حوالي الساعة الواحدة والنصف، فسيكونان هناك بعد الخامسة مباشرة.

فهما سيذهبان عبر الريف، حيث أن الرحلة ستأخذ وقتاً أطول بواسطة الطريق ذي التفرعات الملتوية.

كان الجوادان جاهزين وهما يبدوان من الروعة بحيث يرضيان أكثر محبي الخيل صعوبة في الإرضاء.

وتذكرت كيف كان الماركيز فارساً ممتازاً وهو صبي، ومع انها كانت اصغر منه كثيراً، فقد كانت تراقبه دوماً بإعجاب.

شعرت بأنه عندما يصل إلى بيته سيتملكه السرور لاستعارته جياد أبيها، وسيكون ذلك إلى أن تمتلىء اسطبلاته بجياده الخاصة.

ورفع السائسان يديهما إلى جبينيهما احتراماً.

«كنا على وشك الذهاب، يا آنسة فاندا، وقد اعطانا السيد رشمان رسالة إلى سيدي.»

ابتسمت قائلة: «لا تضيعاها.»

فقال احدهما: «لقد سمعنا لتونا شيئاً غريباً يا آنسة.»

فاستدارت فاندا نحوه تستمع إليه، بينما تابع يقول: «اخبرنا الفتى الذي يعمل في حديقة الكوخ الأبيض أنه رأى هذا الصباح سبعة رجال على ظهور الخيل يدخلون غابة المدرّس.»

جمدت فاندا في مكانها فجأة، فقد كانت تعلم جيداً من يكون هؤلاء الفرسان. وفكرت في مبلغ غبائها.

فهي لم تتذكر أثناء تفكيرها في وجود أولئك الرجال في الجناح الغربي بأن المفروض أن يكون لديهم جياد.

وهذا يعني انهم لا بد يضعونها في القصر، فقد كان هناك عدد كبير من مرابط الخيل حيث ان الاسطبلات قد انشئت لتسع خمسين جواداً على الأقل.

لقد أدركت، ولم تكن قد ارتابت في الأمر من قبل، ان السائسين هم أيضاً قد هددوا كما هدد تايلور وزوجته بالضبط.

ولهذا لم يذكروا شيئاً عن قطاع الطرق هؤلاء.

وفكرت في أنها كان عليها أن تتوقع ذلك.

وزيادة على ذلك، فقد داخلها الذعر إذ تعلم أنهم اكثر عدداً مما كانت تفترض.

سبعة رجال مسلحون تماماً، لا يستطيع أي رجل مجابهتهم.

فماذا سيفعل الماركيز بالنسبة لهذا الأمر؟

انتبهت إلى أن السائسين كانا ينظران إليها، فقد

أدهشهما صمتها. فقالت بسرعة: «إنني اعجب من عسى ان يكون أولئك الفرسان.»

فقال اكبر السائسين: «وهذا ماكنا نحن نتساءل عنه، يا آنسة فاندا.»

قالت مراوغة: «ساحاول، أثناء غيابكما، ان اسأل عما إذا كان اشخاص آخرون قد رأوهم، رغم أنه يخيل إلي أن الفتى الذي رآهم كان يحلم.»

فقال السائس: «بل هو صادق على الدوام.» وانتبها إلى أن فاندا كانت تنتظر منهما ان يغادرا، فأسرعا إلى مربط الحصانين يأخذان لجام كل منهما بيد. فقالت: «سيرا بهما على مهل.»

فقال السائس الآخر: «وهو كذلك. وسيعتني جاك بالجياد الأخرى إلى حين عودتنا.»

كان جاك هو ابنه وكان يتمتع بنفس خبرته تقريباً.

اخذت فاندا تنظر إليهما إلى ان ابتعدا. عند ذلك أدركت أنه قد حان وقت ذهابها لاعلام الماركيز عن قطاع الطرق المختفين في قصره.

وكذلك عليها أن تمنحه وقتاً يفكر فيه بما يمكنه ان يفعل بشأنهم.

وعندما دخلت إلى البيت أدركت انها إذا هي لم تستطع أن تصل إلى فندق داغنداك في غروسبري في الوقت المناسب لتحذيره قبل ان يترك الفندق متوجهاً إلى قصره، فسيقع في خطر كبير.

فقد يكون قطاع الطرق قد وضعوا خطة لاختطافه لطلب فدية حال وصوله إلى القصر.

فهم سيفاجئونه بدخول القصر على غير توقع منه، وطبعاً، هو لن يكون مسلحاً، ولن يستطيع باكستون العجوز منعهم من ذلك، كلا ولا الخدم الذين استقدمهم من القرية.

كما ان النسوة اللاتي يساعدن السيدة ميداوي ستنتابهم الهستيريا لا اكثر.

ولكن فاندا كانت قررت ما عليها ان تفعله، وذلك حالما وصلت إلى غرفة الجلوس.

كانت خطوة منها بالغة الجرأة، وإذا علم بها احد، فسيكثر حولها اللغط والأقاويل. ولكنها حدثت نفسها بقولها ان كل ما يهم الآن، هو أن حياة الماركيز في خطر.

صعدت إلى غرفتها حيث اختارت عدة اشياء مما تحتاجه أثناء الليل، مضيفة إليها ثوباً آخر لتغيير ثيابها أثناء العشاء، ثم جعلت الجميع حزمة خفيفة مستطيلة يمكنها ان تشدها إلى سرج الجواد.

ثم ارتدت اجمل ثوب للركوب لديها، لتحمل بعد ذلك الحقيبة وقبعة الركوب، ثم تهبط السلم، حيث وضعتهما على كرسي في الردهة.

ثم سارت متمهلة، إذ كانت مضطربة الأعصاب، إلى مكتب أبيها.

رفع السير الكسندر نظراته إليها بضيق، فقد كان يكره أن يقاطعه أحد اثناء الكتابة.

فقالت: «آسفة لإزعاجك يا أبي. ولكنني تلقيت الآن رسالة من الآنسة والترز. إنها مريضة واظن علي ان اذهب لزيارتها.»

كانت الآنسة والترز مربية لها عجوزا قد سبق وعلمت فاندا عدة سنوات قبل أن تتقاعد.

كان لديها كوخ في قرية تبعد حوالي الميل عن غروسيري.

وكان أبوها يعلم أن ابنته اعتادت أن تزورها من وقت لآخر. فهتف قائلاً: «مريضة؟ حسناً، اظن عليك الذهاب لرؤيتها، ولكن خذي معك جيم.»

وكان جيم هذا احد السائسين اللذين قد سبق وغادر.

أدركت فاندا ان أباها قد غاب عن ذهنه أن الماركيز قد استعار جياده، فقالت: «ساحاول العودة قبل حلول الظلام، ولكن إذا اضطررت للتأخر فسأبيت الليلة هناك.»

فقال ساخطاً: «ان تسكعك في أنحاء الريف لا يعجبني. ولكنني أرى أن ليس امامك سوى ان تذهبي إليها مادامت قد ارسلت تطلبك.»

فقالت: «ليس شهامة مني ألاّ ألبيها، يا أبي.»

وقبلت أباها على رأسه، وهي تقول: «لا تتعب نفسك بالكتابة، ولا تنسى اخذ دوائك.»

فرد عليها بحدة: «إنني لست مريضاً.»

خرجت فاندا من الغرفة. لقد كانت تعلم أنه ما ان يستغرق في الكتابة، حتى ينسى كل شيء عنها.

واسرج لها جاك جوادها كينفيشر، ثم انطلقت.

وانعطفت في طريقها لكي لا تتواجه مع السائسين اللذين يعلمان مقدار غضب أبيها لو عرف انها تذهب إلى ذلك المكان البعيد وحدها، كما انها لم تكن

فهم سيفاجئونه بدخول القصر على غير توقع منه، وطبعاً، هو لن يكون مسلحاً، ولن يستطيع باكستون العجوز منعهم من ذلك، كلا ولا الخدم الذين استقدمهم من القرية.

كما ان النسوة اللاتي يساعدن السيدة ميداوي ستنتابهم الهستيريا لا اكثر.

ولكن فاندا كانت قررت ما عليها ان تفعله، وذلك حالما وصلت إلى غرفة الجلوس.

كانت خطوة منها بالغة الجرأة، وإذا علم بها احد، فسيكثر حولها اللغط والأقاويل. ولكنها حدثت نفسها بقولها ان كل ما يهم الآن، هو أن حياة الماركيز في خطر.

صعدت إلى غرفتها حيث اختارت عدة اشياء مما تحتاجه أثناء الليل، مضيفة إليها ثوباً آخر لتغيير ثيابها أثناء العشاء، ثم جعلت الجميع حزمة خفيفة مستطيلة يمكنها ان تشدها إلى سرج الجواد.

ثم ارتدت اجمل ثوب للركوب لديها، لتحمل بعد ذلك الحقيبة وقبعة الركوب، ثم تهبط السلم، حيث وضعتهما على كرسي في الردهة.

ثم سارت متمهلة، إذ كانت مضطربة الأعصاب، إلى مكتب أبيها.

رفع السير الكسندر نظراته إليها بضيق، فقد كان يكره أن يقاطعه أحد اثناء الكتابة.

فقالت: «آسفة لإزعاجك يا أبي. ولكنني تلقيت الآن رسالة من الآنسة والترز. إنها مريضة واظن علي ان اذهب لزيارتها.»

كانت الآنسة والترز مربية لها عجوزا قد سبق وعلمت فاندا عدة سنوات قبل أن تتقاعد.

كان لديها كوخ في قرية تبعد حوالي الميل عن غروسبري.

وكان أبوها يعلم أن ابنته اعتادت أن تزورها من وقت لآخر. فهتف قائلاً: «مريضة؟ حسناً، اظن عليك الذهاب لرؤيتها، ولكن خذي معك جيم.»

وكان جيم هذا احد السائسين اللذين قد سبق وغادر.

أدركت فاندا ان أباها قد غاب عن ذهنه أن الماركيز قد استعار جياده، فقالت: «ساحاول العودة قبل حلول الظلام، ولكن إذا اضطررت للتأخر فسأبيت الليلة هناك.»

فقال ساخطاً: «ان تسكعك في أنحاء الريف لا يعجبني، ولكنني أرى أن ليس امامك سوى ان تذهبي إليها مادامت قد ارسلت تطلبك.»

فقالت: «ليس شهامة مني ألاَّ ألبيها، يا أبي.»

وقبلت أباها على رأسه، وهي تقول: «لا تتعب نفسك بالكتابة، ولا تنسى اخذ دوائك.»

فرد عليها بحدة: «إنني لست مريضاً.»

خرجت فاندا من الغرفة. لقد كانت تعلم أنه ما ان يستغرق في الكتابة، حتى ينسى كل شيء عنها.

وأسرج لها جاك جوادها كينفيشر، ثم انطلقت.

وانعطفت في طريقها لكي لا تتواجه مع السائسين اللذين يعلمان مقدار غضب أبيها لو عرف انها تذهب إلى مثل ذلك المكان البعيد وحدها. كما انها لم تكن

تريد أن تخبر أي احد آخر انه يوجد في الجوار قطاع طرق.

وكانت خبيرة بالمنطقة التي كانت تسير فيها حتى لكأنها تسير في حدائق قصر واين.

لقد كانت تذهب إليها للصيد خلال الشتاء، وطالما ذهبت إلى غروسبيري عشرات المرات مع أبيها، فهي قرية في غاية الجمال، ويقوم فيها عدد من افضل فنادق المنطقة.

ولهذا، لم يكن من المستغرب أن يقرر الماركيز قضاء ليلته هناك وهو في طريقه إلى بيته.

كان النهار دافئاً مشمساً، وكان جوادها كينفيشر يبدو مستمتعاً بهذه الرحلة مثلها تماماً.

وهكذا سارا الهوينا بكل ارتياح وذلك لكي يصلا غير متعبين.

وإذ مرا بغابة سافيرنيك، خطر ببالها ما إذا كان هنالك المزيد من قطاع الطرق يتسكعون فيها، وتمنت لو أن قطاع الطرق السبعة أولئك قد اختاروا هذه الغابة للإقامة، بدلاً من غابة المدرّس تلك والتي يقيمون فيها حالياً.

ولكنها كانت مقتنعة بأنهم لن يتركوا غابة المدرّس قبل ان يظفروا بغنيمة جيدة، اما بشكل نقود أو أشياء ثمينة من القصر.

ومرة أخرى، اخذت تفكر مذعورة في النماذج المصغرة، والقطع الفنية القيمة والتحف الذهبية والفضية الموجودة في القصر.

كل هذا كان من السهل عليهم حمله وبيعه في سوق اللصوص بثمن جيد.

واسرعت بالسير دون وعي.

كانت الساعة بعد الخامسة بقليل حين وصلت إلى الفندق.

أسرع نحوها سائس، فسألته: «هل وصلت إليكم أربعة جياد صاحبها هو السير الكسندر شارلتون؟»

«كلا يا سيدتي.»

قالت وهي تنزل عن ظهر الجواد: «إنها آتية خلفي، وعندما يصل سائسوها سيعتنون بالجياد، هم أيضاً.»

اخذت تتفحص الاسطبلات فوجدت خمسة مرابط هي افضل من غيرها، فطلبت إحضار علف جديد، ثم دخلت الفندق.

انحنى امامها صاحب الفندق الضخم الجثة، وهو يقول باحترام: «اهلاً وسهلاً يا سيدتي، ونرحب بك في فندقنا هذا.»

أجابت: «اشكرك. لقد كنت اخبر سائسك، قبل لحظات عن قرب وصول أربعة جياد من قبل السير الكسندر شارلتون.»

وبدا الاهتمام على وجه صاحب الفندق، بينما تابعت هي تقول: «إثنان منهما لاستعمال الماركيز واين ستورك والذي كما اظن، سيبيت عندكم هذه الليلة.»

فقال الرجل: «هذا صحيح يا سيدتي. ويشرفنا ان نستضيف سيادة الماركيز عندنا.»

قالت: «حيث انني احضرت إلى الماركيز رسالة في غاية

الأهمية، فأنا احب ان انتظر وصوله، وسأكون شاكرة لو سمحت لي بانتظاره في غرفة استقبالك الخاصة.»

فوافق صاحب الفندق على الفور، ثم اخذها إلى غرفة استقبال صغيرة حسنة التأثيث، ذات مدفأة تتوهج فيها النار.

وكان بجانب النافذة مائدة معدة للعشاء.

شكرته فاندا ثم سألته ان كان بإمكانها أن تغسل يديها وتصلح من شأنها من أثر السفر.

قادتها خادمة إلى حيث طلبت، فخلعت فاندا قبعتها ذات النقاب. وعندما عادت إلى غرفة الجلوس، كانت تحملها بيدها.

كانت ترجو ألا يتأخر الماركيز وذلك لكي تستطيع العودة إلى بيتها قبل حلول الظلام، وإلا، فسيكون عليها ان تبيت في منزل الآنسة والترز، كما كانت اخبرت والدها. وكان هذا متعباً لها نوعاً ما، إذ ان المربية قد اصبحت شبه صماء نظراً لكبرها في السن، وكان على فاندا ان تكرر كل كلمة تقولها لها.

وكان ذلك قد اجهد فاندا كثيراً آخر مرة رأتها فيها. ومع ذلك، فقد كانت خطتها هذه حسنة تماماً. فالمهم هو أن يعلم الماركيز ما سينتظره من خطر عند وصوله إلى منزله.

* * *

استيقظ الماركيز ليرى انه لم يوقظه أحد رغم ان الساعة كانت السابعة.

فقفز من سريره ثم قرع الجرس ثائراً.

هذا هو الحال دائماً. فعندما لا يكون خادمه الخاص موجوداً، فإن طلباته لا تنفذ بالدقة التي يريدها، ولكنه ما لبث ان تذكر كروكر، والذي كان يخدمه في الجيش، هو أيضاً جندي.

اما الخدم الجدد الذين تعاقد معهم، فلم يجرب خدمتهم بعد.

وأسرع خادم إليه ملبياً الجرس. فسأله الماركيز عن السبب الذي منعهم من إيقاظه الساعة السادسة حسب طلبه.

فأجاب الخادم: «لقد اختلست النظر إليك، يا سيدي، ولما رأيتك مستغرقاً في النوم، لم أشأ ان ازعجك.»

قال: «في المرة القادمة، عندما اقول الساعة السادسة، فأنا اعني الساعة السادسة.»

«نعم، يا سيدي.»

وساعده الخادم على تحضير ثيابه.

وكان هناك تأخير آخر، إذ أنه أسرع في هبوط السلم لتناول افطاره، قبل ان يستعد الطباخون لذلك. وهكذا، كان عليه أن ينتظر الافطار.

وعندما انتهى، وجيء بعربة السفر من الاسطبلات، كانت الساعة قد اصبحت الثامنة.

أدرك الماركيز ان عليه ان يسرع في القيادة إذا كان يريد أن يصل إلى غروسبيري في الوقت الذي يريده.

وإنما كان يعني ان الطرق، كما كان الماركيز يتذكرها في الماضي، كانت سيئة جداً.

فإن يحطم الأمير الرقم القياسي في سرعة القيادة إلى برايتون في ضواحي لندن، هو شيء، والسير في الطرقات

الضيقة الملتوية التي عليه أن يجتازها للوصول إلى قصر واين، هو شيء آخر.

كان الفصل ربيعاً وكانت الأسيجة وجوانب الطرق تتعالى فيها الأعشاب والأزهار المختلفة.

وعلى كل حال، فقد كان الماركيز مركزاً اهتمامه على جياده.

فقد كان من المهارة في القيادة بحيث لم يكن يحثهما على السرعة، وطبعاً، لم يكن يريد ان يقدم على المجازفة هذه.

لقد كانت جياده ممتازة، وحسنة التنشئة أيضاً، فذلك ما أكدوه له عندما اشتراها.

وفي الواقع، كان من السهل خداع الماركيز بالنسبة إلى الجياد، ليجد بعد شرائها ان البائع قد أسرف في امتداحها والمباهاة بها.

ولكنه الآن، على كل حال، كان مسروراً بها، فقد كان يعلم أنها تساوي ما كلفته من نقود.

ودفعه حسن السلوك إلى أن يقف عند الفندق الذي كان ينوي المبيت فيه، حيث ألغى الحجز دافعاً أجرة الليلة بكل سخاء.

لقد كان تعلم في فرنسا أن يدفع ثمن كل ما كان يطلبه الجيش الانكليزي من السكان، وقد أدهش هذا الفرنسيين.

فقد كانوا لا يتوقعون أن يتلقوا ولو قرشاً واحداً ثمن الخراف والدجاج والبط من اعدائهم.

وقال صاحب الفندق عندما وضع الماركيز أمامه عدد

من الجنيهات الذهبية، قال: «انك سيد محترم حقاً، يا سيدي.»

فابتسم الماركيز. ثم تابع سيره. وأثار حنقه عربة زراعية كانت تسير امامه سادة الطريق ما جعل مروره غير ممكن، وعلى كل حال، فقد كان هذا النهار مرهقاً تماماً حيث انه لم يتوقف إلا عند منتصفه ليتناول غداء سريعاً.

ولذلك، عندما وصل إلى فندق داغنداك الساعة الثامنة والربع، كان بالغ التعب والجوع، وكان هناك اثنان من السائسين في انتظاره، بينما وقف صاحب الفندق عند الباب يرحب به.

«هل كانت رحلتك جيدة، يا سيدي؟»

أجاب الماركيز: «ليست سيئة تماماً، ان طرقاتكم، على كل حال، مخزية، ولا بد من فعل شيء بشأنها.»

«اوافقك على ذلك، يا سيدي، فكل مسافر يقول الشيء نفسه، ولكن ليس ثمة ما يمكننا عمله.»

قرر الماركيز ان يحتج على ذلك بقوة عند المحافظ، حيث يوضح له تماماً ان ليس ثمة سبباً لاهمال الطرق بهذا الشكل.

فقد كان واثقاً من ان بعضها يصبح من الصعب اجتيازها في الشتاء عندما يكون هنالك ثلوج أو سيول.

وعلى كل حال، فقد كان حالياً اكثر اهتماماً براحته الآنية.

واصطحبه صاحب الفندق بنفسه إلى غرفة نوم هي الافضل والأوسع في الفندق.

الضيقة الملتوية التي عليه أن يجتازها للوصول إلى قصر واين، هو شيء آخر.

كان الفصل ربيعاً وكانت الأسيجة وجوانب الطرق تتعالى فيها الأعشاب والأزهار المختلفة.

وعلى كل حال، فقد كان الماركيز مركزاً اهتمامه على جياده.

فقد كان من المهارة في القيادة بحيث لم يكن يحثهما على السرعة، وطبعاً، لم يكن يريد ان يقدم على المجازفة هذه.

لقد كانت جياده ممتازة، وحسنة التنشئة أيضاً، فذلك ما أكدوه له عندما اشتراها.

وفي الواقع، كان من السهل خداع الماركيز بالنسبة إلى الجياد، ليجد بعد شرائها ان البائع قد أسرف في امتداحها والمباهاة بها.

ولكنه الآن، على كل حال، كان مسروراً بها، فقد كان يعلم أنها تساوي ما كلفته من نقود.

ودفعه حسن السلوك إلى أن يقف عند الفندق الذي كان ينوي المبيت فيه، حيث ألغى الحجز دافعاً أجرة الليلة بكل سخاء.

لقد كان تعلم في فرنسا أن يدفع ثمن كل ما كان يطلبه الجيش الانكليزي من السكان، وقد أدهش هذا الفرنسيين.

فقد كانوا لا يتوقعون أن يتلقوا ولو قرشاً واحداً ثمن الخراف والدجاج والبط من اعدائهم.

وقال صاحب الفندق عندما وضع الماركيز أمامه عدداً

من الجنيهات الذهبية، قال: «انك سيد محترم حقاً، يا سيدي.»

فابتسم الماركيز. ثم تابع سيره، وأثار حنقه عربة زراعية كانت تسير امامه سادة الطريق ما جعل مروره غير ممكن، وعلى كل حال، فقد كان هذا النهار مرهقاً تماماً حيث انه لم يتوقف إلا عند منتصفه ليتناول غداءً سريعاً.

ولذلك، عندما وصل إلى فندق داغنداك الساعة الثامنة والربع، كان بالغ التعب والجوع، وكان هناك اثنان من السائسين في انتظاره، بينما وقف صاحب الفندق عند الباب يرحب به.

«هل كانت رحلتك جيدة، يا سيدي؟»

أجاب الماركيز: «ليست سيئة تماماً، ان طرقاتكم، على كل حال، مخزية، ولا بد من فعل شيء بشأنها.»

«اوافقك على ذلك، يا سيدي، فكل مسافر يقول الشيء نفسه، ولكن ليس ثمة ما يمكننا عمله.»

قرر الماركيز ان يحتج على ذلك بقوة عند المحافظ، حيث يوضح له تماماً ان ليس ثمة سبباً لاهمال الطرق بهذا الشكل.

فقد كان واثقاً من ان بعضها يصبح من الصعب اجتيازها في الشتاء عندما يكون هنالك ثلوج أو سيول.

وعلى كل حال، فقد كان حالياً اكثر اهتماماً براحته الآتية.

واصطحبه صاحب الفندق بنفسه إلى غرفة نوم هي الافضل والأوسع في الفندق.

وكانت الحقيبة الصغيرة التي احضرها معه بالعربة قد افرغها الخادم الذي صحبه.

وحسب طلبه المسبق، فقد حُضّر له حوض للاغتسال.

قال صاحب الفندق باحترام: «ان دلاء الماء الحار ستكون هنا بعد دقائق، يا سيدي.» ثم استدار ليغادر الغرفة. ثم وكأنه تذكر فجأة، قال: «هنالك سيدة في انتظارك في الطابق الأسفل، يا سيدي، لقد وصلت منذ عدة ساعات.»

فحملق الماركيز فيه، لم يكن بإمكانه ان يصدق ان كارولين وصلت إلى هنا قبله.

وسأله: «سيدة؟»

«اسمها الآنسة شارلتون، يا سيدي، ابنة الجنرال سير الكسندر شارلتون الذي تنتظرك جياده في الاسطبل.»

وتنفس الماركيز الصعداء، وقال: «فهمت، وأنا طبعاً سأعتذر للسيدة لتأخري هذا. وربما ستشرفني بتناول العشاء معي.»

«سأخبر السيدة بما قلته يا سيدي.»

غادر صاحب الفندق الغرفة، بينما اخذ الماركيز يفكر في مبلغ الإزعاج الذي سيشعر به من اضطراره إلى تناول العشاء مع تلك المرأة.

فقد كان هذا آخر شيء يريده. وتوقع ان تكون ابنة الجنرال كبيرة السن، ولا بد انها واحدة من تلك النساء المملات المغرمات بركوب الخيل اللاتي يعتبرن انفسهن اكثر دراية بشؤون الخيل من الرجال. وعلى كل حال، يظهر ان الجنرال قد أعاره جياده.

ولأول مرة يخطر في باله بأن الجياد التي تركها والده لا بد ان تكون طعنت في السن إلى حد لم تعد تصلح معه للركوب.

ولم يكن هناك من يطلب من رشمان شراء جياد جديدة. وسرعان ما أدرك ان رشمان، في هذه الحالة، قد استعار مجموعة الجياد من جار له.

وحدث نفسه بأنه لا بد قد طعن في السن الآن. ثم تذكر ان زوجته كانت امرأة جميلة جداً. ثم عاد للتفكير في كارولين مرة أخرى، وماذا سيصنع بشأنها.

فقد كانت تحتل افكاره طوال الطريق من لندن، تقريباً، فقد غاظه ان تفسد عليه مجيئه إلى بيته الذي كان في غاية الشوق إليه.

وساوره شعور صبي صغير حرم من لعبة رائعة. وحدث نفسه بأنه يكرهها. فهو، في الحقيقة، كان قد أدرك قبل ان يترك باريس بوقت طويل بأنها تمثل كل ما يكرهه في المرأة.

وحدث نفسه وهو يرتدي ملابس العشاء، لقد جعلت من نفسي مغفلاً حقاً. القى على صورته في المرآة نظرة اخيرة، ثم نزل السلم المصنوع من خشب السنديان، والذي كان يفرقع نوعاً ما، تحت قدميه.

وكان صاحب الفندق بانتظاره عند اسفل السلم، فقال له: «سيكون العشاء جاهزاً خلال دقائق قليلة، يا سيدي.»

فأجاب الماركيز: «اعترف بانني جائع جداً.»

فسار صاحب الفندق امامه وتبعه هو في الممر

المصفح بخشب السنديان والذي يسند سقفه دعامات خشبية غليظة، حتى دخلا غرفة الجلوس. ونهضت فاندا التي كانت تنتظره، واقفة. وعندما نظر اليها الماركيز، تملكه الذهول.

* * *

عندما تلقت فاندا دعوة الماركيز لتناول العشاء معه، احضرت حاجياتها من على سرج حصانها، ثم اخذتها خادمة إلى غرفة يمكنها فيها ان تغير ملابسها.

وكانت مسرورة لإحضارها معها ثوباً مسائياً، وكان ثوباً بسيطاً للغاية كانت تنوي ارتداءه في منزل الآنسة والترز.

لم تكن قد احضرت معها أياً من ادوات الزينة. ولكن الماركيز كان يفكر وهو ينظر إليها، أنه لم ير قط في حياته شعراً له مثل هذا اللون الغريب الرائع الجمال.

لقد كان يتوقع امرأة في منتصف العمر، وبدلاً من ذلك وجد نفسه وجهاً لوجه مع فتاة شابة جميلة جداً وفجاة، ابتسم وهو يهتف: «لقد تذكرت الآن. انك فاندا.»

«ظننت انك لا بد نسيتني.»

«إني اتذكرك فتاة صغيرة رائعة الجمال اعتادت ركوب الجياد التي كانت كبيرة جداً بالنسبة لحجمها وتلعب في البحيرة كسمكة صغيرة.»

ضحكت فاندا: «وأنا دوماً اتذكرك تقوم بحصانك بقفزات كان أبي يقول عنها باستياء، انها عالية جداً.»

ضحك الماركيز قائلاً: «لقد كان أبي يقول الشيء

نفسه، ولكنني بقيت دوماً احاول ان اجعل من الصعب سهلاً.»

اخذ الاثنان يضحكان، ثم قالت: «مرحباً بك عائداً إلى بيتك. لقد انتظرناك زمناً طويلاً.»

فقال بلهجة جادة: «وأنا أيضاً. لقد ظننت السنوات لن تنتهي أبداً.»

وجلسا معاً إلى المائدة. وكان الطعام حسن الطهو رغم بساطته. ولكن استمتاع الماركيز به كان بالغاً نظراً للجوع الشديد.

واثناء ذلك، كان يوجه الاسئلة فتجيبه فاندا إليها. اخبرته كيف ان المنزل ما زال في حال حسنة جداً، وكيف عاد باكستون والسيدة ميدواي، قالت: «قد لا تجد المنزل كما كان تماماً في حياة والدك، ولكنهم يبذلون وسعهم بالنسبة إلى الإخطار المفاجيء بقدومك.»

ففهم الماركيز ما تضمنه كلامها هذا من عتاب، فقال: «أعلم ان تصرفي قد سبب لهم الضيق، ولكنني أردت مغادرة لندن قبل الآن. ولكن اعمالاً، اضطرتني إلى التأخر ولم أغادر إلا هذا الصباح.»

فسألته: «إذن فقد قضيت النهار بطوله في الطريق؟»

أومأ برأسه موافقاً.

عادت تقول: «لقد كنت حسن الحظ. فأثناء شهور الشتاء، يستغرق الشخص ثلاثة أيام احياناً ليصل إلينا.»

فعاد الماركيز يتحدث عن الطرق مرة أخرى. وانتهى الطعام، وابتدآ بتناول القهوة، وخرج الخدم وبقيا بمفردهما.

فتركا المائدة وجلسا امام المدفأة التي كان يشتعل فيها قطع كبيرة من الحطب ما بعث الدفء في النفوس.

وإذ ابتدأ الوقت يتأخر بهما، أدركت فاندا ان عليها أن تسرع في إبلاغه ما جاءت لأجله. وإلا، فقد تجد الآنسة والترز نائمة فيما لو تأخرت بالذهاب إليها.

وسألها الماركيز: «ما الذي يقلقك؟»

«كنت افكر في ان علي الإسراع في الكلام، وإلا فإن مربيتي العجوز الساكنة في القرية القريبة والتي لا تتوقع زيارتي، قد تكون نائمة فلا تسمع قرعي للباب.»

«اتعنين انك لن تبيتي الليل هنا؟»

فقالت: «كلا بالطبع، لقد جئت لرؤيتك لخطورة الأمر، ولو لم تتأخر في الوصول، لكان بإمكاني العودة إلى بيتي قبل حلول الظلام.»

فنظر إليها الماركيز، ثم سألها: «لماذا أردت رؤيتي باستثناء احضارك جياد أبيك؟»

فقالت: «لقد كانت الجياد قادمة من دوني.»

فسألها: «ما الذي لديك إذن لتخبريني به؟»

لقد كان يرى انها لم تأت إليه لمجرد تمضية الوقت، كغيرها من النساء.

فقالت: «ثمة أشياء في منتهى الخطورة تحدث حالياً في القصر.»

وحين قالت هذا خفضت من صوتها دون وعي منها.

فنظر الماركيز إليها دون ان يتكلم بينما تابعت هي تقول: «وهي ستزعجك جداً وتفسد عليك بهجتك في العودة، فكان علي ان احذرك.»

«تحذرينني؟»

«نعم، إذ ربما سيلحق بك خطر كبير.»

فبدت عليه الحيرة: «لماذا؟ وممّ؟»

أخذت نفساً عميقاً قبل ان تجيب قائلة: «منذ ايام والجناح الغربي محتل بعصابة من قطاع الطرق.»

فأحسن الماركيز من جلسته وقد بدا عدم التصديق على وجهه: «هل قلت... قطاع طرق؟ وفي الجناح الغربي من القصر؟ لا اصدق ذلك.»

فقالت: «بل هو صحيح، لقد أرعبوا آل تايلور المشرفين على القصر، واظنهم قد هددوا سائسي الخيل أيضاً رغم انني لم اتحدث معهم.»

فقال: «ولماذا لم يقم احد بصنع شيء تجاه هذا الأمر؟ من المؤكد ان رشمان...»

فقاطعته: «ان السيد رشمان لا يعلم شيئاً، كلا ولا أبي. وفي الواقع، انا الوحيدة، باستثناء الخادمين تايلور وزوجته، اللذين يعرفان بأمرهم.»

«يبدو لي ان دخولهم القصر هو شيء غير عادي؟»

فقالت: «لقد كان القصر فارغاً، وقد تملكني الذعر إذ ان بإمكانهم، على الأقل، ان ينهبوا الكثير من الأشياء الثمينة التي يحتويها المنزل.»

«ولماذا تظنين بأنهم لم يقوموا فعلاً بذلك؟»

فترددت، ولكنها رأت أن من الأفضل أن يعلم الماركيز بالحقيقة، فقالت: «ان ما اخاف منه، رغم ان ليس ثمة اساس لظني هذا، هو انهم بحاجة إلى المال فهم ينوون ابتزازه منك إذا انت عدت.»

فقال: «إذا أنا عدت؟ هل تقترحين حقاً أنه لا ينبغي أن اعود؟»

«أظن قد يكون في ذلك خطر عليك، إلا إذا ظفرت بحماية عسكرية.»

فقال هازئاً: «لم اسمع قط من قبل بمثل هذا الهراء. واطمئنك يا فاندا بأنني لست خائفاً من اثنين من قطاع الطرق.»

فقالت فاندا بهدوء: «انهم سبعة، ومن الرعب الذي أثاروه في نفس تايلور وزوجته، لا بد انهم في منتهى الخطورة.»

فقال: «هذا شيء لم اتوقعه قط. اتظنين انهم قد يضروتني؟»

فأجابت: «لقد كان اخبرني أبي منذ سنوات، كيف ابتز قاطع طريق يدعى واطسون، المال من تاجر الماس ما جعله يموت بعد عامين من تأثير العذاب الذي اوقعه عليه قاطع الطريق ذاك.»

فقال الماركيز: «لقد نسيت تلك القصة، ولكن ذلك كان في القرن الماضي، وفي الواقع، لا اظن ان قاطعي الطرق يختطفون الناس.»

فأجابت: «إذن، فقد نسيت الكابتن جايمس كامبل والسير جون جونسون.»

«وماذا فعل هذان؟»

«لقد اختطفا فتاة في الثالثة عشرة لأنها وارثة غنية، وأرغمها جايمس كامبل على الزواج منه.»

فهتفت الماركيز: «اوه... وهل هربت؟»

فأجابت: «لقد قبضت السلطة على قاطعي الطريق، وقد

اعدم السير جون ولكن الكابتن كامبل هرب إلى خارج البلاد.»

لم يتكلم الماركيز بينما تابعت فاندا: «انني واثقة من أنه يوجد الآن قطاع طرق ولصوص بقدر ما كان يوجد في ذلك الحين، خصوصاً وهناك الكثير من الرجال الذين سرحوا من الجيش دون مال أو عمل.»

كان الماركيز يعلم ان هذا صحيح وقد رآه بأم عينيه، وساد صمت سألها بعده: «ما الذي تقترحين علي عمله؟»

فابتسمت: «لقد جئت لأنبهك إلى ان تكون على استعداد، وليس لأقرر عنك، وبعد، فأنت جندي.»

فقال: «لقد كنت على الأقل اعلم اين هو عدوي.»

فقالت: «لقد اخبرتك... انهم حالياً في غابة المدرّس.»

«وهل تظنين أنهم سيبقون هناك؟»

«انا لست واثقة. ولكنني اظن ذلك محتملاً جداً إذا كانوا قد علموا بانك قادم إلى بيتك.»

فقال: «أظن هذا واضحاً، ولكن ماذا بإمكاني ان اصنع؟»

فقالت: «لقد سبق واقترحت عليك ان تذهب إلى ثكنة الجند ليرسل معك الضابط قوة من الجند إلى القصر.»

فأخذ الماركيز يفكر برهة، ثم قال: «انني، في الحقيقة، أكره ان اعترف بالعجز. أليس في الأملاك رجال قادرون؟»

فقالت: «انهم قليلون. ولكن اغلبهم لا يحسنون اطلاق الرصاص حيث انهم لم يذهبوا إلى الحرب. والمذراة لا تكفي في مواجهة الرصاصة.»

فضرب بيديه ذراعي المقعد، وهتف يقول: «هذا شيء لا يحتمل، فالوضع بنفس السوء الذي كان عليه منذ خمسين عاماً، فأنا اذكر ان جدتي كانت تخبرني ان الشوارع، عندما كانت هي صغيرة، كانت من الخطورة بحيث لم تكن تستطيع مع أمها الانتقال من مكان إلى مكان إلا بحراسة خدم مسلحين يحمونهما من اللصوص.»

فضحكت فاندا، ثم قالت بعد فترة: «اظن لو ان جيادك كانت افضل من جيادهم، لاخذوها معهم.»

فقال الماركيز على كره منه: «اظنك على حق، ولكن علي ان اعترف بأن من الإذلال لي ألاّ اتمكن من حماية نفسي وخدمي، وأرى نفسي مرغماً على طلب حماية الجيش.»

فقالت بلهجة واقعية: «ان الإذلال سيكون اكبر لو كنت مقيداً ومرغماً على اعطائهم مبلغاً كبيراً من المال.»

فقال: «هذا صحيح. حسناً جداً، لن اذهب إلى البيت مباشرة كما كنت انوي، ولكنني ساتوجه إلى الثكنة.»

فشبكت يديها معاً: «انني في غاية السرور إذ ترى ذلك هو الأصلح. والآن، علي ان اذهب.» ونهضت واقفة.

قال الماركيز: «لا تكوني حمقاء، يا فاندا، انظري إلى الساعة.» وكان على رف الموقد ساعة نظرت إليها فاندا فتملكها الذعر إذ وجدت أن الساعة هي بعد الحادية عشرة.

حملقت فيها، ظانة انها ربما غير صحيحة، ولكن

الماركيز قال: «ابقي هنا، إنني واثق من انك غير مضطربة لكونك معي.»

فأجابت: «كلا بالطبع... ولكنني افكر في سمعتي... وطبعاً... سمعتك أيضاً.»

ضحك الماركيز، وقال: «لن يدهش احد إذا رآني بصحبة سيدة جميلة، وانت، في الواقع، جميلة جداً.»

احمر وجهها، ورآها قد ازدادت جمالاً بذلك.

قالت: «اشكرك. انه أول إطراء حصلت عليه منذ فترة طويلة.»

فسألها: «وهل كل انسان هو أعمى في هذه القرية الصغيرة؟»

غمزت فاندا بعينيها وهي تقول: «كلا، يا سيدي، بل هم عجائز.»

فقال: «لم يخطر هذا ببالي قط. وطبعاً، كل الشبان مثلي، لا بد ذهبوا إلى الحرب.»

فقالت: «جميعهم. وبعضهم لن يعود أبداً.» وكان في صوتها رجفة بسيطة.

قال: «حسناً، انك ستستمعين إلى إطرائي، وعندما يعود المنزل إلى سابق عهده، ساحضر اصدقائي من لندن، والذين هم اكثر بلاغة وفصاحة مني.»

فأجابت: «انك يا سيدي بالغ اللطف، ولكن ما يهمني حالياً، هم قطاع الطرق.»

قال: «إذا قلت لي (يا سيدي) مرة أخرى، اظن ساضربك على كفك. فقد نشأنا معاً واسمي، إذا كنت قد نسيته، هو نيل.»

فقالت: «إنني اعرفه جيداً، ولكنني اظن من الخطأ ان اعتمد على صداقة الطفولة.»

وقبل ان يرد عليها، اضافت تقول: «كلا، ان الكلمة خطأ، بل هي هيام الطفولة، فقد كنت تمثل في نظري كل الأبطال الذين في كتب التاريخ.»

فالقى الماركيز برأسه إلى الخلف وانفجر ضاحكاً: «أما أنا، فإلى ان وصلت إلى عمرك الآن، كنت اعتبر كل الفتيات مصدراً للإزعاج.»

وأثناء كلامه، كان يفكر بأنهن مازلن كذلك إذا كن مثل كارولين.

وكانت تلك جميلة جداً بكل تاكيد. ولكنه يرى الآن ان فاندا تفوقها بجمال فريد في نوعه لا مثيل له.

وقال: «والآن، كوني عاقلة وخذي غرفة هنا تبيتين فيها الليلة. ان عليك ان تاتي معي غداً إلى الثكنة لتشرحي بالضبط ما الذي يحدث في قصر واين. وحيث أنني لم أكن هناك فلا احد سيستمع إليّ.»

فقالت باسمة: «هذا غير ممكن، فكل شخص من المنطقة يعلم مقدار اهميتك عند الدوق ويلينغتون، والميدالية التي فزت بها بعد معركة واترلو.»

فهتف الماركيز: «آه... تلك.»

فقالت مرددة: «نعم... تلك. فأنت ستجد حتى في أوقات السلم، انها مهمة جداً.»

فقال: «إذن، من السلطة التي اكتسبتها اثناء الحرب، عليك يا فاندا ان تسمعي كلامي.»

وابتسم هازلاً ثم اضاف يقول: «ساقول لصاحب

الفندق بان تاخرك هنا منعك من الذهاب إلى منزلك. وساخبره بانك بحاجة إلى إحدى افضل الغرف عنده بالإضافة إلى خادمة في غرفة الملابس.»

قالت: «لا اظن احداً سيعترض على ذلك.»

قال: «المهم هو ألاّ يعرف احد عنه. فنحن سنرحل في الصباح الباكر. وسنقصد حسب رأيك، إلى ثكنة الجند.»

فكر لحظة، ثم قال: «ربما من الخطأ أن نذهب معاً إلى القرية. ولهذا علينا أن نخبر السائسين الذين سيمتطون ظهور جيادي بأن ينتظرونا في مكان يمكنني ان اتركك فيه قبل ان اتابع مسيري إلى ا القصر.»

نظرت إليه مستحسنة ما قال، ثم قالت: «ها قد تسلمت انت المسؤولية، وهذا بالضبط ما اردتك ان تقوم به.»

فقال: «اما الآن، حيث اننا نحن الاثنين، متعبان، سنأوي إلى النوم حالما اقابل صاحب الفندق.»

قال ذلك ثم غادر الغرفة. وشعرت فاندا بأن العبء الذي حملته فوق كتفيها منذ تحدثت إلى تايلور وزوجته، شعرت به وقد أصبح الآن خفيفاً.

كانت شديدة الخوف من أن ينهب قطاع الطرق القصر، أو يلحقوا ضرراً بالماركيز.

ولكنها، على الأقل، تمكنت من إقناعه بأن يلتمس العون.

حين عاد إلى غرفة الجلوس، قال لها: «لقد رتب كل شيء، ويمكنك الآن ان تكفي عن القلق لأجلي.»

ووقف ينظر إليها بطريقة جعلتها ترفع حاجبيها مستفهمة.

قال: «إني اتساءل كيف بإمكاني ان اشكرك لمثل هذه العناية التي بذلتها نحوي.»

وكان يعلم بالضبط كيف تستمع أية امرأة أخرى لكلامه هذا.

ولكن فاندا لم تفعل سوى أن قالت بسرعة: «تمالك أعصابك، فما يزال الطريق إلى نجاتك تماماً، طويلاً، وليس امامي سوى ان اتابع الدعاء بأن تكون من المهارة بحيث تهزم اعداءك.»

فقال: «اشكرك يا فاندا. إنني بحاجة إلى دعائك حقاً.»

الفصل الخامس

نزل الماركيز إلى غرفة الجلوس مبكراً لتناول طعام الافطار، ليجد فاندا قد سبقته إلى غرفة الجلوس.

كانت تبدو غاية في الاناقة بملابس الركوب وعلى رأسها قبعة يتدلى منها على ظهرها نقاب شفاف.

قال لها باسماً: «صباح الخير، يا فاندا. آراك الآن فتاة قروية حقيقية.»

فسألته: «هل لأنني استيقظت باكراً؟ إنني أحب ركوب الخيل في الصباح الباكر»

فقال: «وكذلك أنا. وأتمنى لو أمكنني ذلك هذا الصباح.»

وعندما أقبل صاحب الفندق وخدمه مسرعين بالافطار، قال لها: «حيث أنني أريد أن أتحدث إليك ونحن في طريقنا إلى حيث نقصد، فقد طلبت من سائسي أن يمتطي جوادك.»

وإذ ظن أن فاندا تبدو وكأنها توشك على الرفض، سارع يقول: «إنه فارس ممتاز وأؤكد لك أن في إمكانك أن تثقي به.»

فقالت: «أنا واثقة من ذلك. وفي الواقع، لقد سبق وغادر سائسو أبي هذا المكان عائدين إلى البيت.»

فقال: «لقد حسبت ذلك. ولو أنهم كانوا انتظروك لتعودي معهم، لما كان في ذلك أية صعوبة.»

كانت فاندا قد أوصت السائسين بقيادة جياد الماركيز بكل رفق. وكان عليهم أن يقابلوها عند تقاطع الطرق. وكان ذلك المكان يبعد عن القرية حوالي الميل. وقد استبعدت أن يراهم أحد.

كانت تعلم أن أباها، حين يصلون إلى البيت، سيولي اهتماماً بالغاً بجياد الماركيز.

وأثناء تناولهما طعام الافطار، قال الماركيز: «هل نمت جيداً؟»

«جيد جداً. وأشكرك لهذا.»

وعندما رأت نظرة تساؤل في عينيه، قالت توضح له قولها ذاك: «لقد كنت قلقة عليك أن تسير نحو الخطر مغمض العينين. ولكن، حيث أنك الآن قد قررت الذهاب إلى ثكنة الجند، فلم أعد أشعر بالخوف.»

أجاب: «أحب أن أقول ان ثمة مبالغة في هذا الوضع كله. فأنا لا أصدق حقاً أن قطاع الطرق الانكليز، مهما كان عددهم، يبلغون من الارهاب مبلغ نابوليون بونابرت.»

ضحكت فاندا، ثم قالت: «هذه المشكلة شخصية بينما تلك وطنية.»

أعجبه منها سرعة بديهتها، فقال: «بعدما سمعته عن النقص المؤسف في الاطراء الذي يوجه إليك في هذه المنطقة من الريف، هل لي أن أقول لك انك جميلة جداً وذكية جداً أيضاً؟»

فقالت: «إنك تجعلني أشعر وكأنني أتعمد استجلاب مديحك، ولكن بما أن ذلك حدث فعلاً، فأنا مسرورة به.»

فضحك الماركيز.

ولم تستطع أن تتجنب الشعور بالبهجة لكونها معه.

عندما أنهيا تناول الافطار، دفع الماركيز إلى صاحب الفندق مبلغاً بلغ من السخاء حداً جعل هذا يكاد يطير فرحاً من شدة سعادته.

وفي الخارج، كانت عربته في الانتظار.

وعندما ناوله سائسه اللجام، انطلق بها مغادراً الفناء، بينما امتطى السائس الحصان كينفيشر ولحق بهما.

كانت فاندا تعرف الطريق إلى الثكنة، ولكن الماركيز، بعد غيابه الطويل ذاك، لم يعد واثقاً منه.

ولم يستطع أن يسرع في طريقه بالنسبة إلى تعدد المنعطفات والأزمة الجانبية، أو ممرات كانت من الضيق بحيث أنه إذا واجهت عربتهما عربة أخرى، كان على إحداهما أن تعود إلى الخلف.

وتملك فاندا السرور وهي ترى الماركيز يتحدث إليها عن تجاربه في فرنسا.

كذلك وهو يحدثها عن الدوق القائد وذكائه الوقاد. فيقول: «لم يكن هناك من يستطيع هزم نابوليون سواه.»

فقالت: «وهذا رأيي أنا أيضاً.»

فتابع الماركيز يقول: «إنه بطل أوروبا بأجمعها. وعندما يعود السنة القادمة إلى الوطن نهائياً، أرجو أن يريه الوطن مقدار اعترافه بجميله.»

فقالت فاندا: «وأنا أرجو ذلك أيضاً، فهو رجل عظيم حقاً.»

فقال الماركيز: «وأنا سعيد تماماً إذ رافقته طوال السنة الماضية.»

أعجبت فاندا بتواضع الماركيز، فقد كان واضحاً أنه كان يكره الحديث عن بطولاته.

وما لبثت الثكنة أن لاحت لهما من بعيد.

ساورها الحزن وهي تفكر في أنه قد لا تسنح لها فرصة أخرى لمثل هذا الحديث الشيق مع الماركيز. وصعدا نحو البوابات.

أبلغ الحارس اسمه ثم طلب مقابلة الضابط المسؤول.

أجاب الحارس: «إنه الميجور لاوسون، يا سيدي.» وأشار إلى الطريق المؤدي إلى البناء المركزي، فتوجه الماركيز بالعربة نحوه.

ساعد فاندا على النزول، ثم سارا داخلين من باب كبير وقف على جانبيه حارسان بانتباه.

وعندما عاد الماركيز يخبرهما عن اسمه، أرشداه على الفور إلى مكتب الميجور لاوسون.

كان رجلاً متوسط العمر يبدو عليه الذكاء والكفاءة في بذلته العسكرية.

وحيا الماركيز بحفاوة، قائلاً: «إنه شرف كبير لي، يا سيدي. وفي الواقع، لم أعلم بأنك عدت إلى الوطن.»

أجاب الماركيز «لقد عدت لتوي.»

فقال الميجور: «إذن، فليس لدي ما أقوله سوى التعبير عن سرورنا برؤيتك.»

فقال الماركيز: «أشكرك. والآن، هل لي أن أقدم إليك

الآنسة تشارلتون والتي ربما تعلم أنها ابنة الجنرال السير الكسندر تشارلتون.»

فقال الميجور لفاندا وهو يصافحها: «لا أظننا تعارفنا من قبل، ولكنني أعرف أباك وأعجب به كثيراً.»

فقالت فاندا: «أشكرك.»

قال الماركيز: «لقد جئنا لرؤيتك لأمر هام. وأكون شاكراً يا ميجور لو أمكننا التحدث على انفراد.» فبدت الدهشة على وجه الميجور، ولكنه قال: «طبعاً.»

واستدار نحو الضابط الشاب الذي كان جالساً إلى مكتب آخر في الغرفة، وقال له: «انتبه إلى أن لا يقاطع جلستنا أحد.»

أجاب الضابط: «حسن جداً، يا سيدي.» وخرج من الغرفة مغلقاً الباب خلفه.

جلس الماركيز وفاندا على كرسيين قرب مكتب الميجور، عند ذلك سألهما الميجور: «والآن، ما الذي بإمكاني أن أقوم به لأجلك، يا سيدي؟»

أجاب الماركيز: «أظن بإمكان الآنسة تشارلتون أن توضح لك الامر بشكل أفضل مما أستطيعه أنا.»

ونظر أثناء كلامه إلى فاندا، فقالت: «عندما علمت بأن الماركيز عائد إلى منزله، اتصلت به مبكرة هذا الصباح لكي أحذره من الخطر...»

فقاطعها الميجور بدهشة: «الخطر؟»

أجابت: «سبعة من قطاع الطرق يحتلون الجناح الغربي من قصره، ويهددون المشرفين على القصر وسائسي الخيل.»

أخذ الميجور يحملق فيها بذهول لحظة، ثم هتف يقول: «إذن، فهناك عصابة بيكر مختبئة!»

فقال الماركيز: «عصابة بيكر؟ أتعني أنكم تبحثون عنهم؟»

فأجاب الميجور: «منذ شهرين. لقد جاءنا تحذير من تكنة الجند في وارويكشاير بأن العصابة قادمة في اتجاهنا. وقد ظننا أنها في غابة سافيرنيك.»

«وهل كنتم تحاولون القبض عليهم؟»

فأجاب الميجور: «لقد استطاعوا، حتى الآن، إخفاء أنفسهم. ولكنهم في غاية الخطورة ويشكلون تهديداً لهذه المنطقة الريفية. إن سجلهم الاجرامي، في الواقع، هو أسوأ ما واجهني حتى الآن.»

فصدرت، لدى سماعه، صرخة ذعر عن فاندا، بينما انحنى الماركيز إلى الامام وقال: «حدثني عنهم.»

فقال الميجور: «إن قائدهم هو رجل يدعى بيكر، كان في السابق صانع معجنات. وكان لديه محل في ماي فير، فتعامل معه الارستقراطيون ومن ثم كانوا السبب في افلاسه.»

بانت الدهشة على الماركيز، فقال الميجور موضحاً: «لقد أخذ عملاؤه يشترون منه بالدين بكثرة، وأخيراً لم يسددوا له ماله، فأعلن إفلاسه.»

سكت الميجور لحظة، ثم قال: «يمكنك أن تتصور أن هذا ملأ نفسه حقداً على المجتمع، فاقسم على أن ينتقم لنفسه.»

هتف الماركيز: «وهكذا لجأ إلى قطع الطرق!»

فقال الميجور: «بالضبط. فهو وعصابته لم يكتفوا بقتل عدد كبير من الناس فقط، بل عذبوهم أيضاً.»

فهتفت فاندا دون وعي: «آه، كلا.»

قال الميجور: «بل هو صحيح للأسف، يا آنسة تشارلتون. إن بيكر يفضل النقود على الاشياء القيمة. وفي عدة حالات، كان يرسل إلى أهل ضحيته يطلب فدية، فإذا لم تأت النقود على الفور، كان يرسل إليهم اصبعاً من اليد أو القدم أو أذناً، وذلك ليستعجلهم في الدفع.»

وسحبت فاندا نفساً عميقاً وهي تشبك أصابعها ببعضها. لم تكن تنظر إلى الميجور بل إلى الماركيز، الذي قال بعد لحظة: «كان الحق معك تماماً يا فاندا في حملي على المجيء إلى هنا.»

فسأله الميجور: «هل هذا من فعل الآنسة تشارلتون؟ إذن دعني أؤكد لسيادتك أنك لا تتعامل هنا مع قصص كتاب (سادة الطرق المهذبون) ولكن مع وحش شاذ، وسيكون العالم أفضل كثيراً لو أنه يرحل عنه.»

فقال الماركيز: «لقد فهمت.»

«وكذلك اعتاد بيكر ورجال عصابته أن يقتلعوا عيني الاسير الذي يتمكنون منه، وذلك لكي لا يعرف هويتهم.»

فقال الماركيز وهو يرى أن ما يقوله الميجور، يحزن فاندا: «لقد أخبرتني بما يكفي، يا ميجور، لكي تؤكد لي أنني كنت على حق في قدومي إليك طلباً للحماية. وبإمكان الآنسة تشارلتون أن تخبرك أين توجد العصابة حالياً.»

فأمسك الميجور بقلمه، بينما قالت فاندا: «لقد تركوا الجناح الغربي في قصر واين الآن، وقد رآهم فتى يدخلون غابة المدرّس، فأخبر سائسي جياد أبي بذلك.»

فقال الميجور: «لقد مضى وقت طويل منذ كنت في قصر واين، ولكنني أظن أن غابة المدرّس تبعد قليلاً إلى الجنوب من القصر.»

فقالت فاندا: «هذا صحيح، وهي غابة كبيرة متشعبة ولا يدخلها أحد من القرية، وأنا واثقة من أن اختيار العصابة لها كان لهذا السبب.»

ورأت الحيرة على وجه الميجور، فقالت موضحة: «أطلق هذا الاسم المدرّس على الغابة تيمناً بمدرّس كان ترك المدرسة واستقر في الغابة ليتزهد ويداوي الحيوانات التي كانت تأتي إليه عندما تصاب بأذى.»

فقال الميجور: «لقد تذكرت الآن أنني سبق وسمعت بهذه القصة.»

«في وسط الغابة بالضبط، حيث ستكون العصابة كما أظن، يوجد أطلال كوخ كان قد بناه المدرّس ذاك، حيث كان يقدم الطعام ليس فقط للمسافر الذي يصادف مروره من هناك، ولكن أيضاً ليداوي الثعالب والغزلان والأرانب البرية والطيور، وكلهم كانوا يثقون بطريقة معالجتهم.»

فهتف: «إذن، فتلك هي القصة؟ كلما أسرعنا في اخراج أفراد العصابة تلك من ذلك المكان، كان ذلك أفضل.»

أجابت فاندا: «إنني أوافقك على هذا. فقد كنت دوماً أستمتع بالنزهة في تلك الغابة لأنني ما زلت أشعر فيها بجو الصفاء ذاك، رغم أن المدرّس قد توفي منذ مئتي سنة.»

وكانت تتكلم بإخلاص مؤثر ما جعل الماركيز ينظر إليها باسماً وكأنه يفهم مشاعرها.

قال الميجور: «والآن، ما أقترحه هو أن يمكث سيادة الماركيز هذه الليلة هنا.»

سأل الماركيز بحدة: «هذه الليلة؟»

فقال الميجور: «نعم لسوء الحظ، ذلك أن كل جندي، حالياً هو خارج الثكنة حيث يقومون بمناورات، وبعضهم سيعود الساعة الخامسة اليوم، ولكن البقية لن يعودوا قبل الصباح.»

انزعج الماركيز من هذا الأمر، ولكن فاندا التي كانت تعلم أن ليس بإمكانه أن يفعل شيئاً، قالت بهدوء: «يجب أن تبقى. سيكون من الجنون أن تذهب إلى القصر بعد أن علمنا ما هم عليه أولئك الرجال.»

قال الميجور: «أنا أوافقك على هذا، يا آنسة. ويمكنني أن أطمئنك، يا سيدي، إلى أننا سنوفر لك كل أسباب الراحة التي نستطيعها وسيشرفنا، أنا وزوجتي، جداً أن يكون أكثر راحة من الثكنة.»

وأطلق الميجور ضحكة قصيرة قبل أن يضيف قائلاً: «على كل حال، لا بد أنك معتاد على حياة الثكنة.»

فأجاب الماركيز: «هذا صحيح. ولكنني في غاية الشوق للعودة إلى منزلي.»

أجاب الميجور: «من الطبيعي أن تكون كذلك ولكنني لا أستطيع أن أصر أكثر من ذلك على مبلغ الخطر الذي سيحيط بك فيما لو ذهبت إلى هناك بمفردك. وأنا واثق من أن الآنسة فاندا محقة في ظنها بأن عصابة بيكر هي في انتظار عودتك.»

فقال الماركيز على كره منه: «لا بأس. سأفعل ما تقوله.»

قال الميجور: «إن ما علينا أن نقوم به، أنا وأنت يا سيدي، هو أن نضع أفضل خطة للهجوم وهذا يعني، كما أرى، هو الاقتراب من الغابة من كل جهاتها في وقت واحد، وهكذا يصبح من غير الممكن عليهم الهرب.»

فقال الماركيز: «إذا أمكننا أن نفاجئهم، بإمكاننا أن نمنع بذلك كثيراً من سفك الدماء.»

فقال الميجور: «وهذا ما أرجوه أنا أيضاً. وحيث أنك يا سيدي، أكثر خبرة مني بكثير في المعارك، فأنا احترم حكمك المتفوق على كل ما نفعل.»

فقال الماركيز بهدوء: «أشكرك.»

ساد صمت قصير، ثم قالت فاندا: «سأعود أنا إلى البيت وأخبر كل شخص أن سيادته قد تأخر في لندن. والوحيدون الذين سيعلمون أنه أمضى الليلة في فندق داغنداك في غروسبري هم سانسو أبي والذين هم موضع للثقة تماماً.»

فقال الميجور: «إذا أنت قمت بهذا، يا آنسة تشارلتون، فهذا سيساعدنا جداً. وسيمنحنا فرصة نأخذ فيها أولئك الرجال على حين غفلة.»

فنهضت فاندا واقفة وهي تقول: «إن جوادي في الخارج، وسأرحل على الفور.»

ثم ترددت قليلاً قبل أن تقول للماركيز: «من الافضل أن تأخذ جيادك إلى اصطبل أبي حيث لن يراها أحد، إذ أنها لو ذهبت إلى منزلك لأدرك سانسوك أنك لم تبق في لندن، وسيسمع قطاع الطرق بذلك.»

فقال الماركيز: «هذا كلام منطقي.»

مدت فاندا يدها إلى الميجور تصافحه وهي تقول: «إلى اللقاء يا ميجور. إنني اتمنى أن ينتهي كل هذا الرعب، ويستمتع سيدي بعودته إلى بيته بأمان.»

فأجاب الميجور: «إنني أعدك يا آنسة بأن رجالي سيبذلون ما في وسعهم. وأنا متشوق جداً إلى رؤية أبيك مرة أخرى.»

ابتسمت فاندا له.

قال الماركيز: «سأرافق الآنسة تشارلتون إلى الخارج ثم أعود، يا ميجور ومن ثم نبدأ بوضع تفاصيل الخطة.»

فأومأ الميجور برأسه دون أن يترك مكتبه.

رافق الماركيز فاندا إلى الخارج حيث كان جندي يمسك بجوادها كينفيشر.

قال لها بصوت منخفض: «أرجوك يا فاندا أن تنتبهي إلى نفسك، وإياك والمجازفة.»

«كلا. كلا بالطبع.»

كانت تعلم أنه يفكر في ما سبق وأخبرته به عن كيفية علمها بوجود قطاع الطرق.

ساعدها على الجلوس على سرج الحصان وحين فعل ذلك، رفع نظراته إليها فالتقت أعينهما.

قال لها بهدوء: «لا حاجة بي إلى أن أخبرك بأنك كنت رائعة.»

فقالت: «كل ما يهم هو سلامتك.»

وبجهد، رفعت فاندا اللجام ثم حولت رأس كينفيشر نحو البوابة.

وعندما غادرت، كانت تعلم أن الماركيز كان ما يزال واقفاً ينظر إليها، ولكنها لم تنظر إلى خلفها.

كانت ترجو أن يستطيع وضع خطة بحيث تجنب الرجال الخطر قدر المستطاع.

وعلى كل حال، فقد كان يساورها شعور غير مريح بأنه إذا كانت ستحدث معركة، فإن الماركيز سيكون في وسطها.

كانت هناك مسافة لكي تصل إلى تقاطع الطرق، ولكن السائسين كانا في انتظارها.

وعندما وقفت بقربهما، رأت أن من غير الممكن أن يكون هناك جياد أفخر من هذه التي كان الماركيز قد اشتراها مؤخراً.

وعندما سارت بجانبهما، رفع السائسان يديهما بالتحية وقد ظهر عليهما السرور برؤيتها، واضحاً.

قال لها واحد منهما: «إنها جياد رائعة حقاً، يا آنسة فاندا. ونرجوا أن يفكر السيد، حين يراها، بشراء ما يماثلها لاصطبلاتنا.»

فقالت: «سنريه إياها لأننا سنأخذها إلى بيتنا معنا. وليس إلى اصطبلات القصر.»

فنظر إليها السائسان بدهشة.

ثم ابتدآ يسيران ببطء باتجاه القرية.

عند ذلك أخبرتهما فاندا عن وجود قطاع الطرق في الغابة وعن أن الماركيز في خطر كبير.

فقال أكبرهما سناً: «إنه خبر مزعج، يا آنسة فاندا.»

فقالت: «أعلم هذا. وعلينا أن نحتفظ بالسر إلى أن يقبض على أفراد العصابة.»

ثم أخبرتهما أن عليهما أن يشيعا في القرية أن الماركيز بقي في لندن، وأنهما لم يجتمعا به في غروسبري كما كانا يتوقعان.

«لقد انطلقنا بأربعة جياد وعدنا بأربعة.» هذه هي القصة التي أصرت فاندا على السائسين أن يحفظاها عن ظهر القلب. «وما لم ينظر أحد داخل اصطبلنا، فلن تكون لديهم أقل فكرة بأن اثنين من جيادنا ليست لنا.»

فقال أصغر السائسين سناً: «فهمت ما تعنيه، وعلينا أن نخبر كل من يسألنا أن الماركيز ما زال في لندن.»

فقالت بارتياح: «هذا حسن جداً. ومن المهم جداً جداً أن يصدقكما كل شخص في القرية.»

فسألها كبيرهما: «وماذا بالنسبة إلى المتواجدين في القصر؟»

أجابت: «سأخبر باكستون والسيدة ميدواي بنفس القصة.»

* * *

وصل السائسان مع فاندا إلى البيت محاذرين الذهاب من خلال القرية، وإنما اتجها إلى المنزل من ناحية بعيدة فلم ير أحد الجياد.

سلمت فاندا كينفيشر إلى جاك الذي كان بانتظارهم، ثم دخلت إلى البيت.

وكما توقعت، كان أبوها في مكتبه، وعندما دخلت رفع بصره إليها باسماً، ثم قال: «هل عدت يا عزيزتي؟ لقد تملكني القلق عليك عندما لم تعودي الليلة الماضية.»

فأجابت: «لقد خفت حقاً يا أبي من أن تشعر بذلك. ولكن شيئاً في غاية الاهمية قد حدث وهو ما يجب أن أخبرك به.»

وأغلقت الباب، ثم خلعت قبعتها. وبعد أن جلست على كرسي قبالته، حدثته بكل القصة عن قطاع الطرق.

استمع السيد الكسندر إليها ذاهلاً. ثم سألها: «ولماذا لم تخبريني من قبل؟»

«لأن هذا كان سيسبب لك القلق يا أبي، وليس هناك ما يمكنك القيام به بالنسبة لوجودهم في الجناح الغربي. كذلك لم أخبر السيد رشمان لنفس السبب.»

فقال بإصرار: «أظن كان يجب أن نعلم نحن الاثنان بذلك. وكنت سأرسل خبراً إلى ثكنة الجند على الفور.»

فقالت بهدوء: «ربما كانوا سيهربون بشكل ما. ولكن الماركيز الآن هو المسؤول، وأنا واثقة من القبض عليهم حيث أن الميجور لاوسون يسعى لذلك منذ شهور.»

فقال السيد الكسندر بغضب: «إنه لأمر شنيع أن تحدث

أمور كهذه بينما الجيش عاجز عن تقديم أولئك المجرمين للعدالة.»

وأدركت فاندا أن هذا هو الموقف الذي كان أبوها سيتخذه لو علم بالأمر قبل الآن.

ولكن لم يكن في الأرياف سوى العدد القليل من الجند.

كذلك في منطقة تغطيها الغابات مثل ويلتشاير لن يصعب على عدة رجال إخفاء أنفسهم.

ولكنها قالت لأبيها: «هل تدرك يا أبي أن ليس من المفروض أن يعلم بهذا الامر سواك حتى بعد غد؟ إنني ذاهبة إلى القصر لأخبرهم بأنك تلقيت رسالة من لندن تقول بأن قدوم الماركيز قد تأخر، وسيأتي في أواخر الاسبوع. أظن أن قطاع الطرق سيسمعون بذلك بطريقة ما.»

فانفجر السيد الكسندر قائلاً بغضب: «إنني ألوم في ذلك تايلور وزوجته لجبنهما ذاك عن إخبار المسؤولين عما يحدث.»

فقالت فاندا: «إن تايلور وزوجته يكاد يقتلهما الرعب. وإذ نعلم الآن مبلغ وحشية أولئك الرجال، فلا أحد يلومهما.»

فسكت أبوها، بينما أضافت هي تقول: «إنك لم تخبرني قط عن قطاع الطرق الذين كانوا من القسوة بحيث يقتلعون أعين ضحاياهم، ويرسلون إلى ذوي من يطلبون فدية عنهم، أصابع أيديهم أو أرجلهم.»

فأجاب أبوها: «مثل هذه الاشياء، ينبغي ألاّ تقال

للاطفال، وأنا معك يا عزيزتي بأنه كلما أسرعوا بالقبض أفراد عصابة بيكر، كان ذلك أفضل.»

فقالت: «هذا صحيح يا أبي، ولكنك نسيت أن قطاع الطرق لم يعودوا يعدمون أمام العامة كما كان الامر في الماضي. فقد كان ذلك العمل بربرية مخيفة إذ يجعل المكان يبدو كالمهرجان في تزاحم الناس والباعة، بينهما كذلك عارضو التسالي.»

فأضاف السيد الكسندر: «كان ذلك شيئاً شنيعاً حقاً.»

فقالت: «لقد أصبحت المشانق الآن في فناء محكمة أولد بيلي. لقد منعوا كل تلك العروض، ولكن المكان بقي مفتوحاً للعموم.»

فقال أبوها بحزم: «إنني أوافق على ذلك كنوع من الردع.»

فتناولت فاندا قبعتها، ثم سارت نحو الباب.

إنها العدالة، وأفراد عصابة بيكر يستحقون المحاكمة جزاء جرائمهم، بكل تأكيد.

ولكنها ما زالت لا تحب أن تتصور رجلاً، مهما كان سيئاً، معلقاً على حبل المشنقة.

وبعد أن تناولت الغداء مع أبيها، متوخيين الحذر التام من الكلام أمام الخدم، عاد السيد الكسندر إلى مكتبه.

عند ذلك، قررت فاندا الذهاب إلى القصر.

أسرج كينفيشر لأجلها، ثم دخلت المرج من خلال البوابة التي اعتادت عليها، لتسير على جوادها الهوينا تحت أشجار السنديان، متجهة نحو البحيرة.

وكانت تفكر في الماركيز.

كانت تعلم مبلغ شعوره بالاحباط لاضطراره إلى المبيت في الثكنة، غير قادر على القدوم إلى منزله قبل الغد.

فقد شعرت بأن كل أفكاره قد ثارت ضد قرار الميجور لاوسون.

ولكنه كان يعلم أنه سيكون بالغ الحماقة إذا هو قام بشيء آخر. فقد كان جندياً رائعاً وأذكى من أن يقوم بمجازفة لا لزوم لها.

وتقدمت بجوادها إلى الباب الامامي من القصر.

ولا بد أن باكستون قد رآها لأن خادماً أقبل نحوها مسرعاً ليمسك برأس كينفيشر، بينما ساعد خادم آخر فاندا على النزول.

وكان هذا أمراً يمكنها القيام به بنفسها بسهولة.

ولكنها استحسنت ما كان باكستون يعلم الخدم الطرق المثلى للتصرف عند حضور ضيوف.

حياها وهي تصعد الدرجات، فقالت: «مساء الخير، يا باكستون. لقد طلب مني أبي إبلاغك بعض الاخبار والتي أخشى أن تصيبك بخيبة الامل.»

فسألها: «خيبة أمل، يا آنسة فاندا؟»

«نعم، فقد وصل موفد من لندن ليخبر أبي بأن سيده الماركيز قد أعاقه عن المجيء، كما أظن رئيس الوزراء، ولهذا فلن يأتي اليوم كما كان منتظراً. ولكنه سيأتي حالما يستطيع ذلك.»

فهتف باكستون: «آه، سيصاب الطاهي بخيبة أمل كبرى. لقد جهز كل شيء لعشاء خاص لسيادته.»

فقالت: «هذا ما توقعت أن يحدث. ولكن، بطبيعة الحال، حيث أن سيادته وصل لتوه من فرنسا، فهناك كثيرون من ذوي الاهمية من الناس الذين كانوا يريدون رؤيته حال عودته للوطن.»

فقال باكستون: «أظن علينا أن ننتظر، وأرجو ألاّ يكون انتظارنا طويلاً.»

أجابت: «إنه يتحدث في رسالته إلى أبي عن مبلغ شعوره بخيبة الأمل، هو أيضاً، ولكننا في الواقع نظن أنه قد يأتي غداً.»

قال باكستون: «إذن، فهذا ما علينا أن نتطلع إليه متشوقين.»

وكأنما كان يريد من فاندا أن تبدي استحسانها لما أحدثه من تغيير في القصر، فقال:

«لا أدري يا آنسة فاندا إذا كنت تحبين أن تلقي نظرة على الفضيات التي أخرجتها من حيث كانت محفوظة. لقد استغرق تنظيفها وقتاً طويلاً. ولكنني أرجو أن تجديها كما كانت في حياة الماركيز الكبير.»

هتفت: «يسرني جداً أن أراها.»

كانت الفضيات تستحق المشاهدة حقاً، وكان أكثرها من عهد الملك جورج الثاني.

وكانت فاندا تعلم أن لدى باكستون طريقة لتنظيفها تجعلها تتألق كالماس.

وحيث أن معظمها كان منشوراً على طاولة غرفة المونة، فقد أخذت تنظر إلى كل قطعة منها باهتمام.

وبعد ذلك صعدت إلى الطابق العلوي لرؤية السيدة ميدواي والتي كانت متشوقة للتفاخر هي الاخرى، مثل باكستون.

نظرت فاندا إلى خزانة المفارش حيث كان كل شيء مكوياً منظماً يفوح منه عطر الخزامي الذي كان موضوعاً في أكياس صغيرة دست بين ملاءات الفراش وأكياس الوسادات.

ثم أخذتها المرأة إلى غرفة النوم الرئيسية التي كان يتوالى على استعمالها كل ماركيز يخلف سلفه في أسرة والين ستوك.

وكان الاثاث منظفاً وملمعاً، ما جعله يبدو كالمرآة كما أن ملاءة حريرية كانت تتدلى من سرير فخم. وكذلك كانت هناك أزهار الربيع في زهرية موضوعة على منضدة هناك.

وأخذت فاندا تفكر في مبلغ سرور الماركيز بما يحيط به في منزله من وسائل الترف والراحة بعد سنوات الحرب تلك.

وعندما تركت أخيراً القصر، كان الوقت قريب المساء.

كانت قد فكرت في التحدث إلى تايلور وزوجته، ولكنها عادت فقررت أن ذلك سيكون خطأ منها.

فقد كانا نفذا وعدهما لقطاع الطرق فلم يخبرا، كما يبدو أحداً عنهم.

وسيبقى الامر كذلك إلى أن تصبح العصابة خلف القضبان.

وعندما كانت فاندا تسير في الحديقة الفسيحة تحت الأشجار متجهة نحو البوابة التي كانت أقبلت منها، كانت العتمة قد ابتدأت تنتشر.

كانت تفكر في الماركيز، متسائلة عما إذا كان مكوثه في الثكنة يشعره بعدم الارتياح.

وفجأة، وعلى غير توقع، إذا بكينفيشر يقف على ساقيه الخلفيتين.

وما لبثت فاندا أن انتبهت إلى رجل يمتطي حصاناً كان يقف أمامها، مباشرة. ثم ادركت ان هناك رجلين آخرين يقفان على جانبيها. وشهقت مذعورة بينما اشتدت يداها على اللجام، ومنع الرجل الذي أمامها، كينفيشر من التقدم أكثر من ذلك.

ورأته فاندا يضع على وجهه قناعاً.

وقال يخاطبها بصوت قاسي: «إذا صدر عنك صوت، فستندمين.»

وهذا بينما أخذ الرجلان اللذان على جانبيهما اللجام من يدها ثم أخذا يقودان الحصان إلى الامام.

فتمسكت فاندا بالسرج بينما كانت تعض شفتها تمنع نفسها من الصراخ.

وأسرع الرجال الثلاثة في السير.

كانوا بعيدين عن مرمى النظر من المنزل، فادركت أن ليس هناك من يرى إلى أين يأخذونها ولكنها كانت تعلم بالضبط ذلك المكان.

ولم يمض سوى عدة دقائق دخل بعدها الرجال إلى غابة المدرّس.

وعندما ضاق الممر، تأخر الرجلان، اللذان كانا بجانبيهما، إلى الخلف.

ولم يتكلم أحد منهم.

ورفعت فاندا لجام حصانها الذي كان قد أخذ منها. ولم يكن ثمة طريقة للهرب وأمامها واحد من قطاع الطرق وخلفها اثنان.

إنها الآن أسيرتهما، وفي منتهى العجز.

الفصل السادس

عندما وصلوا إلى وسط الغابة حيث كان الكوخ الصغير، رأت بيكر.

ولم يكن يخفى على من يراه أنه كان الزعيم.

كان واقفاً ينتظرها، بينما كان الثلاثة الباقون جالسين على العشب.

كانت تحيط ببيكر هالة من السلطة كانت تتوقعها. أوقفت جوادها، فانحنى لها متهكماً وهو يقول: «دعيني أرحب بك، يا سيدتي، في مقري المتواضع.»

فلم تجب.

وأشار هو آمراً أحد رجاله بأن يأخذ جوادها كينفيشر.

وإذ رأت أنه سيرفعها عن الجواد، انزلقت إلى الأرض بسرعة قبل أن يفعل ذلك.

قالت بهدوء يدعو إلى الاعجاب: «أظن لا ضرورة لأن أسأل عن السبب في احضاري إلى هنا.»

فأجاب: «أتصور أنك من الذكاء بحيث تكهنت بأنه حيث أن الايرل لم يشرفنا بحضوره، فلا بد أن تأخذي مكانه.»

فحبست فاندا أنفاسها.

لم تستطع أن ترغم نفسها على توجيه السؤال الذي كان يضطرب على شفتيها.

ولم يكن بيكر يضع قناعاً على وجهه.

وبدا لها أنه لا بد كان رجلاً أنيقاً عندما كان يعمل في محله في ماي فير.

ولكنه الآن قد ارتسمت على ملامحه صلابة وقسوة.

وكان ثمة خطوط في وجهه رأت أنها لم تكن نتيجة كبر في السن وإنما للفساد والإجرام.

ولم تشأ التفكير في هذا.

قال بيكر بينما كان الرجال الممتطون الجياد يبتعدون جارين خلفهم كينفيشر، قال لها: «لقد وضعنا رسالة تطلب فديتك، عند باب منزل أبيك.»

أجابت فاندا بصوت ما زال على هدوئه: «كم هي قيمة الفدية؟»

فرد عليها يقول: «وكم تظنين نفسك تستحقين؟»

أجابت وهي ترفع رأسها بكبرياء: «يهمني أن أعلم، يا سيد بيكر، قيمة المبلغ الذي طلبته.»

قال بسرعة: «إذن، فأنت تعرفين إسمي. كيف كان ذلك؟»

فقالت مراوغة: «لا بد أنك تدرك أنك مشهور في هذه المنطقة الريفية.»

فقال بخشونة: «مشهور جداً. وإذا كنت قد أخبرت أولئك الجنود الاوغاد عنا، فسأقتلك.»

كان يتحدث بلهجة الوعيد.

قالت: «لقد سمعت منذ مدة طويلة بأن الجنود يبحثون عنكم في غابة سافيرنيك، ولكنهم لم يستطيعوا العثور عليكم.»

ألقى بيكر برأسه إلى الخلف وانفجر ضاحكاً، ثم قال:

«لقد استغفلناهم. وهذا ما سنفعله مرة أخرى، ولن نبقى هنا بعد أن يدفع أبوك لنا الفدية.»

أجابت: «كل ما أرجوه هو ألا تكونوا قد طلبتم أكثر مما يستطيعه.»

«يمكنه أن يدفع لأجلك نفس الثمن الذي وضعه أولئك القضاة ثمناً لرأسي.»

كان يتكلم غاضباً ما جعل فاندا تشعر برعب حقيقي، فسألته بصوت مرتجف: «كم... كم هو المبلغ.»

«ألف جنيه ذهبي.»

فشهقت فاندا بينما تابع يقول: «وكلما طال به الوقت لارسال النقود، نقص منك شيء عندما تعودين إليه.»

وإذ كانت فاندا تعلم بالضبط ما الذي يعنيه، كاد يغمى عليها من الرعب.

ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأن الماركيز والجنود سيكونون هنا غداً.

أما ما عليها عمله، فهو أن تكسب الوقت.

فقالت وهي تجاهد في اسباغ الهدوء على صوتها: «أظن يا سيد بيكر، أن علي أن أشعر بالزهو إذ أرى قيمتي تماثل قيمتك.»

وكان من المستحيل عليه أن يغفل التهكم الذي تضمنه صوتها، فضحك قبل أن يقول: «جرأتك تعجبني، وأرجو ألاّ نضطر إلى قطع الكثير من لحمك.»

فردت عليه بحدة: «وطبعاً، هذا شيء أنت ماهر جداً في القيام به. هل تشعر بالحنين إلى محل المعجنات خاصتك؟»

فحملق بيكر فيها وقال: «إذن فأنت تعلمين عن هذه أيضاً؟ حسناً، انهم أناس مثلك ومثل ذلك الماركيز الذي لا يحفظ مواعيده، من أفقدني كسب معيشتي.»

أجابت: «وهذا ما أراه أمراً محزناً تماماً.»

فقال مزمجراً: «لا أريدك أن تشعري بالاسف لأجلي. فأنا أستمتع الآن بما أقوم به. وإذا أنا عذبت بعض الارستقراطيين الفاسدين، فهذا ما يستحقونه.»

كان يتكلم بطريقة كانت جديرة بأن تشيع الذعر في فؤادها لو لم تكن تعلم بأن العون سيأتي في النهاية.

ولم تكن نظرت إلى رفاق بيكر، ولكنها كانت تدرك أنهم كانوا أكثر خشونة وسوقية منه.

فقد كان يبدو بشيء من حسن الهندام، كما كان حديثه يدل على ثقافة لا بأس بها.

كان واضحاً أنه من طبقة أرقى من طبقة رجاله الذين يقودهم.

وألقت نظرة سريعة على الرجال الجالسين على العشب.

وكان أولئك الذين أحضروها يرتدون أقنعة، ولكنها أدركت أنهم من طبقة منحطة.

أو لعلهم من أحياء لندن الفقيرة القذرة التي تكثر فيها الامراض، حيث لم يعرفوا شيئاً سوى الحرمان والقسوة والجريمة.

وكان الرجال الذين أسروها قد شدوا قوائم جيادهم ثم عادوا، وعندما رأوا زعيمهم غير مقنع أزاحوا أقنعتهم.

سأل واحد منهم بيكر بوحشية: «ما رأيك فيها؟

أليست قطعة جميلة؟ إن بإمكاننا أن نتكلم إلى أن تأتي النقود.»

وأثناء كلامه اقترب خطوة من فاندا. وإذ رأت هذه نظرته إليها، أسرعت بالابتعاد عنه.

فقال بيكر: «دعها. إذا كان ثمة شخص سينتظر حتى يرسلوا النقود، فهو أنا ذلك الشخص. وإذا لم يرسلوها، فتتصرف أنت بعد ذلك.»

فتملكها الرعب لقوله ذاك حتى شعرت بركبتيها ترتجفان. فسألته بسرعة: «هل يمكنني الجلوس؟ فقد كنت مشغولة جداً هذا النهار كما أنني لم أتناول الشاي بعد، يا سيد بيكر.»

فأجاب: «هذا ليس بإمكاني توفيره لك، ولكن بإمكانك أن تحصلي على رشفة من الماء إذا شئت.»

فأجابت: «كلا، شكراً.»

وحولت نظراتها إلى أطلال الكوخ الذي كان خلف الرجال الجالسين على العشب.

فتابع بيكر نظراتها بعينيه، ثم قال بخشونة: «هذا هو المكان الذي ستضعك فيه هذه الليلة. وإذا فكرت في الهرب، فأنت مخطئة. وهذا يذكرني بأن لدى والدك عدة جياد هي أفضل من جياد الماركيز.»

أجابت: «إن أكثرهم كبروا في السن.»

فقال: «ليس ثمة عيب في جوادك الذي تمتطينه، ويمكنني أن آخذه هو أيضاً بجانب الالف جنيه التي سيدفعها أبوك لأجلك.»

فأوشكت فاندا أن تصرخ.

كيف تستطيع أن تدع رجالاً كهؤلاء يسلبونها كينفيشر، ولكنها عادت فحدثت نفسها بأن الماركيز والجنود سينقذونها ومعها الجواد أيضاً.

ومهما حدث، فعليها أن تحتفظ بهدوئها.

فهي إذا ما صرخت أو احتجت، فسيتخذون من ذلك عذراً لمعاملتها بطريقة أخرى قد تكون في غاية الخشونة.

ولم تشأ أن تفكر في أنهم قد يعاملونها أيضاً بطريقة أخرى...

وتساءلت عما إذا كان عليها أن تجلس على الأرض. عند ذلك وقع بصرها على شجرة كانت سقطت عند مدخل الكوخ المهدم، فسارت نحوها متمهلة كيلا يظنوا أنها تحاول الهرب. ثم استدارت وجلست في مواجهتهم عالية الرأس.

كان بيكر، الذي كان ما زال واقفاً، يراقبها وعلى شفتيه ابتسامة، ثم قال: «إنك من طبقة عليا، حسب خبرتي من الحديث مع الفتيات الجميلات والعجائز الشمطاوات اللاتي يحرسنهن.»

فقالت: «أما أنا، فلم تسنح لي الفرصة بعد لأكون عنك فكرة ثانية.»

فقال بخشونة: «لو كنت فعلت ذلك، ربما كنت تركت ديوني عليك دون تسديد، مثل أولئك الحثالة الذين يسمون أنفسهم أرستقراطيين.»

فردت عليه قائلة: «هذا غير صحيح. فإن أبي يدفع دوماً ديونه، وكذلك أنا.»

«إذن، فأنت مستثناة من بين أولئك المتعفنين الفاسدين

الذي يتسكعون في أنحاء لندن يدعون التمدن والتحضر.»

وسكت ثم عاد يكرر ثائراً: «التمدن والتحضر! إنهم حيوانات مفترسة للبشر، هذا ما أسميهم به وهذا ما هم عليه في الحقيقة.»

وقبل أن تفكر فاندا في جواب، جاء أحد رجال العصابة إلى بيكر يقول: «لقد حل الظلام، ومعدتنا فارغة.»

فقال بيكر: «أشعلوا النار إذن، فليس هناك من يراها في هذا الوقت من الليل.»

كان يتحدث إلى الرجل الذي كان واقفاً بجانبه، ثم التفت إلى فاندا قائلاً: «هذا صحيح، أليس كذلك؟ هل هناك جواسيس يراقبوننا؟ إذا كان ذلك صحيحاً، فسأشنقك بيدي هاتين.»

فقالت: «ولماذا يراقب الجواسيس الغابة التي لا يدخلها أحد خوفاً من الاشباح.»

فقال أحد قاطعي الطريق: «ماذا؟ شبح؟ أي شبح؟»

أجابت فاندا: «شبح المدرّس الذي عاش في هذا الكوخ. لقد كان رجلاً نزيهاً. ويعتقد الفلاحون بأنهم ما زالوا يرونه في الليالي وهو يداوي الحيوانات التي كانت تأتي إليه عندما تصاب بأذى.»

وكانت تتكلم برقة بالغة.

لم يكن بيكر فقط هو الذي كان يستمع إليها، ولكن رجال العصابة أيضاً.

قال واحد منهم: «أنا لا أحب الاشباح. إنني أشعر بالرعب منهم.»

كان في صوته شيء جعل بيكر يقول بحدة: «حسناً،

إنك لم تمكث هنا طويلاً. أشعل النار ودعنا نرجو، لمصلحة السيدة، أن نجد فديتها عند عتبة باب أبيها عند الفجر.»

فشهقت فاندا، وأخذت تتساءل كيف يمكن لأبيها أن يجد ألف جنيه قبل الفجر ما دام الماركيز لن يأتي قبل الغد.

فأبوها لا يحتفظ مطلقاً بمبالغ كبيرة من النقود في بيته، كما أن السيد رشمان قد لا يكون لديه سوى خمسين جنيها والتي هي أجور المستخدمين.

ورأت أن أباها قد يرسل السائسين إلى مدينة تراوبريدج ليوقظا مدير المصرف والذي سيتمكن من إحضار المبلغ حتى ولو اضطر إلى فتح المصرف في الليل.

وكانت واثقة من أن طلب الفدية كان مصحوباً بتهديد بقتلها إذا أبلغ أبوها الشرطة أو الجند.

وعندما أخذ أحد الرجال يشعل النار، أخذت هي تتساءل عما إذا كان من الممكن أن يتمكن أحد من رؤيتها من خارج الغابة.

ولكنها عادت فتذكرت أن العصابة هي هنا منذ زمن، دون أن يلحظ وجودها أحد ما عداها.

لقد كانت الغابة بالغة الكثافة، هذا إلى أن أحداً لم يكن يجرؤ قط على دخولها، ما جعلها معزولة تماماً عن أي اتصال بشري.

وعندما اضطرمت النيران، أقام الرجال في وسطها سياخاً أدركت فاندا منها أنهم ينوون شي حمل صغير كان قد تم اصطياده.

ثم رفعوه فوق النار بطريقة ماهرة أدركت فاندا منها أن بيكر لا بد قد علمهم إياها بنفسه.

أخذ بعض الرجال يقوم بوضع حبات البطاطا على الجمر حول النار.

وكان معلقاً فوق النار أناء أدركت فاندا فيما بعد أنه يحتوي على حساء الأرانب والحمائم.

كان كل رجل منهم يضع في جيب سرج حصانه صحناً وكوباً أحضروها الآن ثم وضعوها فوق الحشائش، ورأت فاندا أنهم لم يحسبوا حساب إطعامها.

ولكن بيكر قال بلهجة ساخرة: «لأنك ضيفتي، فستشربين معي الحساء من كوبي.»

فأجابته بنفس اللهجة التي تعودها منها: «أظن من المفروض أن أرفض لولا أنني جائعة جداً.»

فضحك وقال: «إن لديك جرأة كبيرة، وسأخبرك فيما بعد، ماذا لديك أيضاً.»

وكان في طريقة كلامه معنى جعل فاندا ترتجف هلعاً.

لقد كانت تعلم أنها تسير على حبل مشدود.

وكان هذا يسبب لها ذعراً أكثر مما لو كانت سجينة وحدها.

وسكب الحساء في الاكواب، ولم تستطع إلا أن تعترف بانه كان شهي المذاق.

وشعرت بالارتياح وهي ترى أن كوب بيكر كان نظيفاً، بخلاف أكواب بقية أفراد العصابة.

كذلك جعلتها طريقة تناولهم الطعام تشيح بوجهها مشمئزة.

وما أن انتهى شي الحمل، حتى ابتدأوا بتقطيعه بسكاكين أخرجوها من أحزمتهم.

تملكها شعور أقشعر له جلدها، بأن هذه السكاكين ملطخة بدم بشري.

ثم أخذوا يلقون في أفواههم قطعاً ضخمة من اللحم، ثم يلفظون ما لم يكونوا يستسيغوه منها.

كما كانوا يتكلمون وأفواههم ملأى.

وكان الطعام يقطر أحياناً على ذقونهم ثم ثيابهم، والتي كانت قذرة ممزقة ومليئة بالبقع.

ولكنها، وهي تنظر إلى بيكر، كانت تشعر بالارتياح تقريباً.

فقد كان يأكل بنفس الطريقة التي تأكل هي بها، كما كانت يداه نظيفتين وذقنه حليقة.

تاقت إلى أن تسأله كيف بإمكانه أن يتحمل معاشرة رجال رعاع سوقة مثل هؤلاء.

وأدركت سبب قول الميجور لاوسون أن بيكر، لم يكن يهمه سوى المال.

كانت تعلم أن ما ينفق بيكر نقوده عليه، كان مختلفاً تماماً عما يرغب فيه قاطعو الطرق.

وعندما انتهوا من تناول الحساء، وضع كل رجل منهم كوبه مقلوباً على الحشائش.

وتساءلت هي عما إذا كان ذلك تقليداً ذا معنى بالنسبة إليهم، ولكنها ما لبثت ان ادركت السبب حين انتهوا من إلتهام الحمل.

فقد أحضر بيكر زجاجة شراب التوت، وسألها: «اتريدين شيئاً منه؟»

وكان هو أول من ملأ كوبه بعد ان نظفه أولاً بقبضه من الحشائش.

فهزت رأسها رافضة وقد ساورها الرعب منه. وبدأت تتمنى ان يخلصها الجنود الآن كي لا تبيت الليلة هنا.

نظرت إلى السماء وكانت النجوم قد بزغت، أثناء تناولهم الطعام، وتربع البدر كبد السماء وصبغ ضوؤه قمم الاشجار بلون الفضة.

كانت تعلم أيضاً أن القمر كان ينير أطلال الكوخ خلف تلك الاشجار.

كان الرجال يتهامسون فيما بينهم.

وأدركت أنهم يتحدثون عنها.

فإذا حدث لها ما تخاف منه، فإن الشيء الوحيد الذي يمكنها القيام به، هو أن تقتل نفسها.

ولكنها لم تكن تعرف كيف يمكنها ذلك.

فقد كان هناك مسدس لا بد أنه محشو، وذلك في حزام كل رجل منهم.

كما كان لديهم أيضاً تلك السكاكين المرهفة التي كانوا يقطعون بها الحمل المشوي.

وتساءلت عما إذا كان بإمكانها أن تمسك بواحدة من أدوات الموت تلك.

وعندما أخذت النيران تومض وكأنها على وشك الخمود، وقد بدا ضوء القمر أكثر سطوعاً، أدركت أن الليل قد تأخر.

نظر بيكر إلى فاندا وقال: «والآن، أنت ستأتين معي تاركين هؤلاء السادة ليرقدوا وحدهم.»

وإذ فتحت فاندا فمها تهم بالصراخ، إذا بحركة في الغابة... حركة تختلف عن تلك التي تحدثها الحيوانات المتحركة تحت النباتات.

كما أنها لا تماثل تلك التي كانت تحدثها الطيور بين أغصان الاشجار طوال المدة التي كانوا يأكلون أثناءها.

وعادت الحركة مرة أخرى، عند ذلك أدار قاطعو الطرق رؤوسهم نحوها.

• • •

كان الميجور لاوسون يقول: «حسناً، من المؤكد أننا لن نستطيع القيام بأكثر من هذا، الآن.»

فقال الماركيز موافقاً: «أشعر بأننا قد وضعنا في اعتبارنا كل شيء.»

كان الرجلان قد أمضيا وقت العصر في وضع الخطط دراسة الخرائط، مقلبين الرأي في كل ما يؤكد لهما بأن عصابة بيكر لن يمكنها الافلات منهم، هذه المرة.

قال الميجور للمرة العاشرة: «كل ما نرجوه هو ألاّ نجدهم وقد انتقلوا إلى مكان آخر.»

فأجاب الماركيز: «لا أظن ذلك محتملاً إذا كانوا ينتظرونني.»

فقال الميجور: «بالضبط، فأنا لا أرى ثمة سبباً آخر يدفعهم إلى الانتظار طوال تلك المدة.»

وتمطى الميجور يريح بذلك عضلاته المتعبة بعد جلوسه الطويل ذاك.

وكان الايرل يشعر بالشيء نفسه.

قال الميجور: «سنذهب إلى منزلي، وأنا واثق يا سيدي من أنك بحاجة إلى الراحة، مثلي.»

كان الماركيز على وشك الجواب، عندما سمع طرق على الباب.

كان الميجور قد طلب من رجاله عدم مقاطعة اجتماعهما هذا.

وسادت فترة صمت جمع خلاله أوراقه، قال بعدها بلهجة حادة: «أدخل.»

فتح الباب ودخل جندي برتبة رقيب أول وقف يؤدي التحية العسكرية، ثم يقول: «إن المجموعة ب عادت إلى العمل يا سيدي.»

فابتسم الميجور لاوسون: «تسرني عودتكم، أيها الرقيب أول. فانا أثق بالرجال المتفوقين أمثالكم.»

«شكراً يا سيدي وقد نلنا رضاء واستحسان قائدي المناورات.»

فقال الماركيز: «تهانيء إذن.»

وسأله الميجور: «كم من الرجال عادوا معك؟»

«مجموعتي عادت كلها، يا سيدي، أما البقية فسيكونون هنا بعد ساعة.»

فقال الميجور: «هذا حسن.»

وعندما انصرف الرقيب أول، قال الميجور للماركيز: «أنا أعلم أنه يسرك أن تعلم أننا سنتحرك للعمل في الصباح الباكر.»

مضت لحظة لم يتكلم فيها الماركيز، وعندما نظر

الميجور إليه بدهشة، قال: «أظن من الضروري أن نتحرك للعمل هذه الليلة.»

«الليلة؟ ولكن الغابة ستكون غارقة في الظلام وسيكون من الصعب على رجالنا رؤية الطريق.»

فقال الماركيز: «على العكس، فالبدر مكتمل هذه الليلة، ومن حسن الحظ أنني وصلت إلى غروسبري الليلة الماضية بعد حلول الظلام.»

فقال الميجور: «لن تصل بقية الرجال قبل ساعة، وقد كانوا يقومون بالمناورات طوال النهار، فهم متعبون وجائعون أيضاً.»

فقال الماركيز: «عندما يذهب الجندي إلى المعركة، غالباً ما يمضي عدة ليال دون نوم.»

فاحمر وجه الميجور، وقال: «المعذرة إذ أتكلم بلسان الجندي وقت السلام.»

فقال الماركيز: «هذا ما أريد القيام به، وعلى رجالك أن يلحقوا بي بأسرع ما في إمكانهم.»

كانت حقيبة ملابس الماركيز قد أخذت إلى منزل الميجور حيث أفرغها سائسه الخاص.

وكانت بدلة المساء موضوعة على السرير.

استغرق تغييره لملابسه وارتداء ملابس الركوب أربع دقائق.

وعندما نزل إلى الطابق الاسفل، كان الحصان الذي أمر الميجور له به، في انتظاره خارج المنزل.

وكان ثمة خادم يمسك بلجامه.

وكان حسب طلب الماركيز، أسرع حصان في الثكنة.

ولكنه لم يكن يماثل تلك الجياد التي اشتراها في لندن، ولكنه يعلم أنه أسرع من تلك التي استعارها من الجنرال.

لم يره الميجور لاوسون عند خروجه، فقد كان مشغولاً باعطاء الاوامر وإخبار الجنود بما ينبغي عليهم عمله.

إنطلق الماركيز بأقصى سرعة متخذاً طريقه عبر الحقول. وقد وجد طريقه بسهولة على بقايا ضوء النهار.

وفي الوقت الذي وصل فيه إلى قرية ستوك كان الغسق قد حل وبزغت أول نجمة في السماء.

ووصل إلى منزل الجنرال. ولما لم يكن وصوله متوقعاً، فهو لم يجد سائساً في انتظاره ليستلم حصانه، وهكذا اتجه نحو الاصطبل.

ونظر إليه سائس كبير السن بدهشة، ثم هتف يقول: «من؟ سيادة الماركيز؟ ما الذي جرى لجيادنا التي أرسلناها إليك؟»

أجاب الماركيز: «إنها ستصل لاحقاً.»

ولم يزد شيئاً على ذلك، بل استدار متجهاً نحو باب المنزل الامامي، وعندما وجده غير مقفل، لم يقرعه بل فتحه ودخل.

تصور أن فاندا، حيث أنه وقت العشاء، لا بد أنها في الطابق الأسفل.

وفتح باباً إلى ما ظنها غرفة الجلوس، ولكنها كانت فارغة، فتابع طريقه قليلاً في الممر إلى أن وصل إلى مكتب الجنرال..

وعندما دخل رأى الجنرال، والذي كان يتذكره جيداً، جالساً إلى مكتب كبير وبجانبه السيد رشمان.

كان الرجلان يمد كل منهما ساقه أمامه على كرسي منخفض. فحدقا فيه ذاهلين.

وكان الماركيز على وشك الكلام، عندما هتف الجنرال: «هذا نيل. جيد أنك هنا، يا فتى.»

وكان كلامه من الحرارة والانفعال بحيث قال له الماركيز: «لماذا؟ ماذا حدث؟»

فقال السيد رشمان: سؤال سيادتك في محله. المعذرة لعدم تمكني من الوقوف لك.»

فقال الماركيز بسرعة: «لا بأس بالنسبة لهذا. أين فاندا؟»

فأجاب الجنرال: «هذا ما كنت على وشك إخبارك به. ولكنها أخبرتني بأنك لن تحضر قبل الغد.»

فكرر الماركيز سؤاله: «أين فاندا؟»

فمد الجنرال يده إليه بقطعة ورق.

ومع أن الماركيز أخذها، فقد كانت لديه فكرة عما تحويه. ذلك أنه كان يراوده إحساس غامض بأنها في خطر، رغم أنه لم يعترف بذلك لنفسه.

فقد كان طوال الطريق يعلم بان ثمة شيئاً قد حدث، ما يجعل من الضرورة الملحة أن يتحرك الجند هذه الليلة.

كانت الورقة التي ناوله إياها الجنرال، مكتوباً عليها: (لقد أخذنا ابنتك أسيرة. فإذا لم تترك على عتبة بابك مبلغ ألف جنيه وذلك فجر الغد، فسنرسل إليك أحد أصابعها، ثم أحد أصابع قدميها وذلك كل ساعتين، إلى أن تدفع الفدية. إياك أن تبلغ أحداً عن هذا، وإلا فهي ستموت.)

كان الماركيز يدرك بأن الورقة قد كتبها بيكر فقد كانت مكتوبة بنفس طريقة الخط التي يستعملها صانع المعجنات في تقديم بياناته.

وسأل الماركيز: «ما الذي بإمكانكم صنعه؟»

فأجاب الجنرال: «لا يمكننا، أنا والسيد رشمان معاً، سوى تقديم مبلغ يزيد قليلاً عن الخمسين جنيهاً، وقد أرسلنا هاوكنز على أسرع جواد لدينا إلى المصرف في بلدة تراوبريدج وذلك لاحضار باقي المبلغ.»

وتابع وقد بان عليه القلق: «ليس أمامنا إلا الدعاء بأن يستطيع إحضار المبلغ من المدير لأن المصرف سيكون مقفلاً.»

فسأله الماركيز: «وهل تتوقع منه أن يعود في الوقت المعين؟»

فبسط الجنرال يديه مظهراً العجز.

فقد كان الرجال الثلاثة يعلمون أن بلدة تراوبريدج تبعد سبعة أميال على الاقل عن قرية ستوك وكان الاحتمال ضئيلاً في أن يعود هاوكنز، بعد إيقاظه مدير المصرف، قبل منتصف الفجر.

فقال الماركيز: «لا يمكننا الانتظار كل ذلك الوقت. فالجنود سيكونون هنا في أسرع وقت، ولكن كما تعلم جيداً، يا جنرال، سيستغرق وصولهم بالطريق العادي إلى هنا وقتاً أطول مما لو كان عبر الحقول.»

ولم يكن ثمة حاجة للشرح بأن الجنود في الثكنة كانوا من المشاة.

فقد كان الجنرال يعلم ذلك كما يعلمه هو.

وتابع الماركيز قوله بهدوء: «إن ما سأقوم به، هو أن ألحق بفاندا.»

فنظر إليه الرجلان معاً بذهول خالص.

فقال الماركيز بعنف: «إننا جميعاً نعلم ما عليه أولئك القذرة من وحشية. حتى وإن لم يعذبوها، فهي جميلة جداً.»

فشبك الجنرال أصابعه ببعضها، ولكنه لم يتكلم.

فسأل الماركيز: «هل يوجد امرأة في البيت؟»

فأجاب الجنرال: «يوجد طاهية تدعى جيني.»

ودون أن يقدم أي شرح، استدار الماركيز متجهاً إلى حيث كان يعلم مكان المطبخ، وكان دوبسون والطاهية يعدان المائدة، فاستدارا ينظران بدهشة إلى الايرل الذي دخل المطبخ.

سار هو نحو جيني قائلاً: «أريدك أن تصنعي لي قناعاً بأسرع ما يمكنك.»

فهتفت: «قناع... يا سيدي؟»

فقال الماركيز: «إن آنسة فاندا في خطر، فأرجوك أن تصنعي لي قناع قطاع طرق.»

فصدرت عن جيني شهقة ذعر، ثم وضعت المقلاة التي كانت في يدها جانباً، لتركض إلى حيث كانت تحتفظ بسلة الخياطة، ثم سألت:

«والآن، من أين أحضر قماشاً أسود؟»

فتطوع دوبسون قائلاً: «إن لديك قميصاً أسود.»

فقال الماركيز: «استعمليه وسأعوضك عنه بآخر أحسن كثيراً.»

وعاد الماركيز إلى المكتب حيث قال لوالد فاندا: «إن ما

أريد القيام به، يا جنرال، هو أن أعثر على فاندا التي هي الآن في غابة المدرّس.»

وتابع قبل أن يفوه الجنرال بكلمة، قائلاً: «عندما يصل الجنود، فإن الميجور لاوسون سيتصل بك على الفور.»

وقطع حديثه فجأة ليهتف قائلاً: «لقد نسيت شيئاً.»

وترك المكتب ثم اندفع عائداً إلى المطبخ.

وكان لاوسون قد ناول لتوه القميص الأسود إلى جيني.

فقال الماركيز له: «اسمع، اريد اربع زجاجات مختلفة من أي نوع عصير مع دواء منوّم أو مهدىء للأعصاب.»

أجاب لاوسون: «لدينا كل هذا، يا سيدي.»

احضرها إذن بسرعة. وافتح الزجاجات وامزج كل العصير معاً مع مقدار من الدواء ثم اعدها إلى الزجاجات. هل فهمت؟» وسكت ثم تابع يقول: «أظنها ستملأ اربع زجاجات.»

«حسن جداً، يا سيدي.»

وإذ كان لاوسون في الجيش من قبل، فقد كان ينفذ الأوامر دون سؤال.

توجه الماركيز عائداً إلى المكتب، حيث أخبر الجنرال باختصار عن الخطة التي وضعها بالاشتراك مع الميجور لاوسون، أثناء العصر.

كما أوضح له أيضاً أن الجنرال لاوسون سيأتي أولاً إليه ليرى إن كان لدى الماركيز أية معلومات جديدة.

ثم أضاف قائلاً: «إن ما عليك أن تؤكده للميجور، يا جنرال، بأن يتحرك الجنود بكل خفة فلا يعلم بهم قطاع الطرق إلا بعد أن يحاصروهم.»

فقال الجنرال: «لقد فهمت، يا بني، ورأيك هو ممتاز جداً.»

فقال الماركيز: «ولكن ما لم أكن أتوقعه، وما عليك أن تخبر به الميجور، هو أن فاندا أسيرتهم الآن.»

وهنا دخل دوبسون المكتب حاملاً بيده القناع.

كانت جيني خائطة، ماهرة كما أن شقّي العينين كانا واسعين بحيث تمكن الماركيز من الرؤية خلالهما بوضوح.

كما أن القناع غطى قسماً كبيراً من وجهه، ما سيجعل من الصعب على أي إنسان، مهما كانت معرفته به جيدة، التعرف عليه.

وقال الماركيز راضياً وهو ينظر إلى نفسه في المرآة: «هذا بالضبط ما أريده.»

ثم عاد فاستدار إلى الجنرال قائلاً: «أدع لي بالتوفيق. كل ما أرجوه هو أن أصل في الوقت المناسب لأمنع اولئك الوحوش من تعذيب فاندا.»

فوضع الجنرال يده على ذراعه وقال: «انني ادعو لك بالتوفيق، يا بني.»

عندئذ ركض الماركيز خارجاً من المنزل متجهاً إلى الاصطبل، لاحضار جواده.

وهناك أعطى السائس الاكبر سناً، والذي أجفل لرؤيته، تعليمات خاصة لم يكن قد حدث الجنرال عنها.

ثم أمره قائلاً: «إذهب حالاً.»

فأجاب السائس: «سأفعل ذلك، يا سيدي.»

وعندما ابتعد الماركيز، أخذ هو يسرج حصاناً لنفسه.

وكان ضوء القمر الآن قد أسبغ على الكون جمالاً أخاذاً.

ما كان من غير الممكن معه أن يتصور الانسان أن ثمة شراً متربصاً في غابة المدرّس.

ووجد الماركيز الممر الذي يقود إلى وسط المرج فسلكه وكان ضوء القمر يتخلل أغصان الاشجار فيلقي بقعاً فضية على الارض أمامه.

كان كل شيء يسوده الصمت ما عدا رفرفة أجنحة طائر مندفع نحو غصن شجرة.

وابتدأ الماركيز يفكر بيأس في أن قطاع الطرق قد يكونون رحلوا.

وفي هذه الحالة، تكون خطتهم قد باءت بالفشل. عندئذ، خيل إليه أنه يسمع صوتاً بعيداً.

وبعد ذلك بلحظة، رأى ضوءاً يتراقص فأدرك أنها نار.

وهذا يعني أنه سيرى فاندا في خلال ثوان، هذا إذا لم يكن قاطعو الطرق قد سجنوا فاندا أو ألحقوا الأذى بها.

ولم يكن لديه سوى أن يأمل ألاّ تهتف به مستنجدة إذا هي عرفته.

وإلا، فالخطر سيلحق بهما، هما الاثنين.

وسيكونان تحت قبضة رجال لم يسبق أن أبدوا شفقة بأعدائهم قط.

وبعد ذلك بدقيقة، وصل إلى أرض واسعة في وسط الغابة.

وبنظرة واحدة، رأى ستة رجال يجلسون حول نار خامدة، بينما كان السابع واقفاً، وقد جلست خلفه فاندا على جذع شجرة.

ولخوفه من أن تتكلم، قال الماركيز بسرعة: «مساء

الخير، يا إخوتي. أرجو أن يمكنني الانضمام إليكم، كما أنني أنحني باحترام كبير لقائدكم، بيل بيكر.»

وسار بحصانه متجهاً نحو قاطعي الطريق.

وفي هذه الاثناء، انتبه إلى أن عدداً منهم قد وضعوا أيديهم على مسدساتهم المتدلية من أحزمتهم.

وسأله بيكر: «من أنت؟»

«جون غارات، وفي خدمتك. وبطبيعة الحال، سيد الطريق المهذب.»

قال الماركيز ذلك بزهو أضحك واحداً منهم.

وما لبث أن تبعه في ذلك عدة آخرون.

وقال له واحد منهم:

«لا بد أنك راضٍ تماماً عن نفسك.»

فأجاب الماركيز ناظراً إلى بيكر: «ولكن ليس بالقدر الذي لا بد أنك تشعر به. إنني أهنئك لأسرك فتاة وارثة، وقد كنت أنا، في الواقع، أترصدها لنفسي.»

فهتف بيكر: «وارثة؟»

فنظر الماركيز إلى بيكر ذاهلاً: «أتريد أن تقول إنك لا تعلم؟»

«لا أعلم ماذا؟»

فقال الماركيز وهو يشير بإصبعه إلى فاندا: «أنها تملك ثروة من عشرة إلى خمسة عشر ألف جنيه؟»

فقال بيكر: «كنت أعلم أن أباها رجل غني، ولكن...»

فقال الماركيز: «إن لديها ثروة خاصة بها ورثتها عن أمها.»

فأخذ بيكر يحك ذقنه، وهو يقول: «هذا يجعل الامور

مختلفة قليلاً. فإذا كان ما تقوله حقيقة، فأنا لم أطلب مبلغاً كافياً.»

فهتف الماركيز به غير مصدق: «لم تطلب مبلغاً كافياً؟ كم طلبت؟»

فأجاب بيكر: «نفس ما وضعوه في رأسي. ألف جنيه ذهبياً.»

فحرك الماركيز يديه في هلع: «إنك تغش نفسك. إن لدي فكرة أحسن كثيراً من هذه بالنسبة لفتاة وارثة.»

فسأله بيكر: «وما هي فكرتك تلك؟»

وكان قد كره تدخل هذا الرجل الغريب الذي يبدو بمثل أناقته هو.

ونظر الماركيز إليه من خلال قناعه، ثم أخذ ينقر بإصبعه على ذقنه متأملاً. ثم سأله بصوت هادىء بطيء: «والآن، ما رأيك إذا أخبرتك بأن كلا منكم يمكنه أن يربح ألف جنيه ثم يترك الباقي لي؟»

فرد عليه بيكر بحدة: «لا أعتقد أن بإمكان أبيها العجوز ذاك أن يحصل على مثل هذا المبلغ في ألف يوم. ونحن لن ننتظر كل ذلك الوقت.»

فقال الماركيز هازئاً: «كلا بالطبع. إنني سأرحل عند الفجر، فإذا كانت فكرتي لا تهمك، فأنا لن أرغمك عليها.»

فقال بيكر: «بل أنا مهتم. إنني مهتم بها طبعاً. إنما فقط لا أعتقد أنها ممكنة.»

فقال واحد من رجاله: «دعنا نسمع ما يقول.»

فتتابعت الأصوات من الآخرين: «هذا صحيح. فلنسمع ما يقوله. وقد يكون ذكياً بقدر ما يبدو أنيقاً.»

وصدرت ضحكة مكبوتة عن أحدهم، فقال بيكر: «حسناً، هيا انطق بما تريد قوله وأخبرنا كيف يمكن لكل منا أن يستحوذ على ألف جنيه؟»

«إنها بالضبط نفس الطريقة التي كان اتبعها جايمس كامبل.»

فقال بيكر متأملاً: «كامبل؟»

فتابع الماركيز: «والسيد جون جونسون.»

فسأله بيكر والذي لم يكن يعلم بالقصة: «والآن، ما الذي فعلاه؟»

فأجاب الماركيز: «سأخبرك بما فعلاه. لقد اختطفا فتاة وارثة، فتزوجها كامبل.»

الفصل السابع

صدمت فاندا بما قاله بيكر إلى حد كاد معه الرعب ان يشلها.

وأخذت تتساءل مذعورة عن طريقة تقتل بها نفسها.

وفجأة، اقبل رجل إلى الساحة ممتطياً صهوة حصان وإذ رأت أنه هو أيضاً قاطع طريق، عادت إلى افكارها.

ولكن، عندما اخذ الماركيز يتكلم جمدت في مكانها، ثم رفعت إليه بصرها وهي تظن نفسها حالمة. لقد عرفت الصوت، ولكنها لم تستطع أن تصدق أنه آت من رجل يغطي وجهه بقناع أسود. وتابع الماركيز كلامه، فأدركت انه هو حقاً، وأرادت أن تقفز واقفة وتركض إليه طالبة منه أن ينقذها.

ولكن عقلها حدثها بأنها إذا هي قامت بعمل أحمق كهذا، فستدمره.

فقد كان رجلاً واحداً بين سبعة مجرمين خطرين. فإذا ساورتهم أقل فكرة بأنه يخدعهم، فستكون في هذه نهايته.

وأخذت ترجو بأن لا يفتضح أمره. وسرعان ما أدركت أنه كان يطيل الحديث وكأنه يريد أن يبقي قاطعي الطريق هؤلاء، مهتمين به. وعلمت بأنه يخاف من أن ينتقلوا إلى مكان آخر.

وفكرت في أن الخطة التي كان قد وضعها بأن يصل

الجنود عند الصباح، لا بد تغيرت، ثم سمعته يتحدث عن جايمس كامبل وزواجه من فتاة وارثة، فتذكرت انها القصة التي كانت هي قد اخبرته بها. وأدركت انه كان يحاول إنقاذها بطريقة غاية في البراعة.

وسمعت بيكر يقول: «لا اصدق أن بإمكانك القيام بهذا.»

فأجاب الماركيز: «بإمكاني ذلك، وقد سبق وقمت به من قبل.»

«فأين هي زوجتك إذن؟»

أطلق الماركيز ضحكة قصيرة قبل أن يجيب قائلاً: «ها انت ذا تلقي الآن اسئلة لن اجيبك عنها.»

فضحك بيكر وقال: «لا شك أنك رجل هادىء الأعصاب.»

والتفت إلى رجاله يخاطبهم: «ولكننا نرحب بعدة ألوف من الجنيهات، أليس كذلك يا شباب؟»

فتصاعدت همهمات الموافقة من رجال العصابة الذين كانوا ينصتون باهتمام إلى كل كلمة كانت تدور بين الرجلين، وكأنما قد نومهم الماركيز مغناطيسياً.

وسار هو إلى حصانه، وهو يقول: «لكي أريكم انني جاد في عزمي هذا، لدي شيء لكم هو أفصح من الكلام.»

وسحب من سرجه شيئاً.

ورأت فاندا أنه كيس صغير من تلك التي يستعملها السيد رشمان حين يوزع الأجور.

فتحه الماركيز ثم أفرغ محتوياته في يده، فتألقت لحظة في ضوء القمر.

وصاح بهم: «تلقوا هدية زفافي لكم.»

ثم، وبحركة مسرحية، ألقى ما بيده في الهواء، وحلقت

الجنيهات الذهبية فوق رؤوس قاطعي الطريق، ومن ثم تساقطت بينهم.

فتدافع الرجال لالتقاطها وكأنهم صبية صغار، وأخذ البعض يعض عليها بأسنانه ليرى إن كانت غير مزيفة.

فقال بيكر بينما اخذ الآخرون ينظرون إليهما بصمت: «وانى لنا أن نعلم انك، بعد زواجك من الفتاة، ستحصل على أموالها؟»

فأجاب الماركيز: «عليك أن تثق بي، وفي نفس الوقت ساعطيكم تعهداً بخطي بأن كل شخص منكم سيتلقى مني، إذا كان حياً، ألف جنيه.»

فصاح أحد الرجال وكأنه ظن أن بيكر سيرفض: «هذا معقول تماماً.»

فقال الماركيز: «لن تحصل على شيء إذا لم تسرع إلى رجل الدين الذي يعقد الزواج. إنه يسكن في بيت قريب، لا يبعد كثيراً عن الطريق من الناحية اليسرى.» فسار رجلان نحو جواديهما.

فقال الماركيز مخاطباً بيكر: «دعهما يركبان من هنا، فهذا سيكون أسرع.»

فقال بيكر متهكماً: «إنك تحسن إلقاء الأوامر تماماً، انى لك ان تعلم كل هذا؟»

فأجاب الماركيز: «لقد امضيت وقتاً في التخطيط لاختطاف هذه الفتاة بالذات، ولكنك سبقتني إليها.»

فابتسم بيكر، بينما أخرج الماركيز قطعة ورق من جيبه، ثم سار نحو فاندا فجلس بجانبها على جذع الشجرة. ولم ينظر إليها.

لم يكتب شيئاً، ولكنه، بدلاً من ذلك، اخذ يقرأ لنفسه ما كان مدوناً فيها، ثم وقف وناولها لبيكر وهو يقول: «ذلك ما كنت فكرت في انك ستطلبه مني، وذلك قبل مجيئي إلى هنا.»

أدار بيكر الورقة لتواجه ضوء القمر فيمكنه قراءتها، ثم قال: «انها تبدو معقولة تماماً، ولكنني مازلت اتساءل كيف ستتدبر ذلك.»

«عندما تصبح المرأة زوجتي، فإن القانون يعتبر أن ثروتها هي ملكي.»

فأومأ بيكر موافقاً بينما تابع الماركيز يقول: «اما ما سأفعله بها، فهذا شأني الخاص.»

وكان بيكر مايزال يتفحص الورقة بعناية، بينما تابع الماركيز يقول: «سيكون الأمر اكثر اماناً إذا أنت ذهبت إلى مصرف في لندن، ويجب عليك أن تخبرني أين بإمكاننا أن نلتقي، وليكن ذلك بعد ثلاثة أو أربعة أيام.»

وبدا على بيكر عدم الرغبة في الذهاب إلى لندن.

فأخذ الرجلان يتناقشان بالنسبة إلى اماكن أخرى. وكان كل منهما يعترض على ما يقترحه الآخر.

وفاندا فقط هي التي كانت تعلم أن الماركيز إنما كان يريد أن يكسب الوقت. كما كانت تنصت إلى صوت وقع حوافر خيول قاطعي الطرق.

كانت تعلم ان المسافة إلى بيت رجل الدين غير بعيدة، وهي واثقة من انهما سيسرعان قدر إمكانهما. وسيكون الأمر صعباً على الماركيز ان يتمكن من شغل بيكر بالحديث طوال الوقت.

وبدا الماركيز وكأنه قد توصل إلى اتخاذ بعض الترتيبات معه فقال: «والآن، كل ما علينا القيام به هو انتظار رجل الدين. وهذا يذكرني بأنني احضرت لكم شراب التوت لتشربوه نخب سعادتي.»

فتصاعد لهذا، الضحك من الرجال الذين كانوا يستمعون إليهما.

أبدى بعضهم ملاحظات لم تفهمها فاندا، ولكنها أدركت أنها كانت عامية بذيئة.

انتقل الماركيز إلى جانب جواده.

وكان الجواد، نظراً لترويضه الجيد، لم يتحرك بل بقي في المكان الذي أوقف فيه، حانياً رأسه يقضم العشب.

أخرج الماركيز الزجاجات من جيب السرج فوضع زجاجتين أمام قدمي بيكر.

ثم استدار إلى الزجاجتين الاخريين، وهو يقول بمرح: «لا بد من أن اخبرك بأن التاجر الذي ابتعت هذا العصير منه، قد تركهما لي كارهاً.»

كان يتكلم بطريقة فهم منها الرجال بانه اخذها من التاجر عنوة بفوهة مسدسه.

فضحكوا وأخذوا يتندرون بشأنها.

قال الماركيز: «لم استطع حمل المزيد. فهنا ما يكفينا، وسنترك زجاجة للشابين الذين ذهبا لإحضار رجل الدين.»

فتمتم واحد منهم: «لو نسيتهما، لسلخا ظهرك.»

فتح الماركيز أول زجاجة، ثم ناولها لبيكر، فأخذ هذا جرعة طويلة ناوله إياها بعدها وهو يشهق ملتقطاً انفاسه،

حتى إذا تمكن من الكلام، هتف قائلاً: «اخبرني، ما الذي وضعته في هذا الشراب؟ ديناميت؟»

فأجاب الماركيز: «انه أحسن انواع شراب التوت الفرنسي.» ومررت الزجاجة من يد إلى يد.

وكان قاطعوا الطرق قد اقتربوا من بعضهم البعض ووضع احدهم بعض الأخشاب في النار يضرمها ما جعلها تشتعل مرة أخرى.

وقد مرت عليهم الزجاجة الأولى مرتين قبل أن تفرغ.

وخيل إلى فاندا أن أعين الرجال تلتمع في ضوء القمر. وقد اخذوا يضحكون بعد ان استنفدو آخر قطرة من الشراب، وابتدأت الزجاجة الثانية في التمرير بينهم، عندما سمعت فاندا صوت حوافر جياد. ولم تستطع أن تصدق أن قطاع الطرق أنجزوا المهمة بمثل هذه السرعة.

وبعد ذلك بلحظة، دخلت الجياد إلى الباحة. وكان رجل الدين راكباً خلف أحد الرجال.

وعندما ترجل من على الحصان، تقدم بيكر نحوه قائلاً وكأنه يريد أن يثبت سلطته: «مساء الخير. أراك موافقاً على تزويج رجل وامرأة عندنا هنا بعقد قانوني؟» وكان يتكلم بصوته الساخر المعتاد.

فأجاب رجل الدين بهدوء: «ليس لدي خيار، ولكنني حضرت على كل حال.»

تقدم رجل الدين نحو الكوخ متجاوزاً رجال العصابة الذين كانوا جالسين على الأرض.

وعقد الرجلان، اللذان كانا قد رافقا رجل الدين،

حصانيهما، ثم انضما إلى رفاقهما الذين ناولوهما زجاجة الشراب التي كانوا احتفظوا بها لهما. وأخذ الرجلان يعبان منها بشراهة. ولكن فاندا لاحظت ان اصواتهم قد انخفضت وكأنما ساورتهم الرهبة امام ما يحدث. وكان رجل الدين قد دخل إلى بقايا الكوخ. وكان قسم منه مازال قائماً، ولكن السقف كان منهاراً بينما لم يكن ثمة أثر للنوافذ.

جلس رجل الدين بين الأحجار المحطمة. بينما رفع الماركيز قبعته وهو يمد يده إلى فاندا ليوقفها من حيث كانت تجلس على جذع الشجرة.

وإذ شعر رجل الدين بوجودهما، وقف على قدميه.

خاطب فاندا أولاً، يسؤالها: «أهي ارادتك ان يحدث هذا الزواج؟»

«نـ... نعم.»

كان صوتها لا يكاد يسمع. وشعرت فجأة بالخجل. بدا لها كل ما يحدث وكأنه حلم، ومع هذا، كان قلبها يغني.

فقد كان الماركيز ينقذها... ينقذها من بيكر ورجاله الأشرار.

وكذلك من اضطرارها لقتل نفسها، هذا إذا استطاعت ومع انها كانت بالغة الخوف من أن يسقط قناعه عن وجهه، إلا أنها كانت تشعر بالبهجة تكتنفها.

وخاطب رجل الدين الإيرل قائلاً: «كرر بعدي.» فكرر الماركيز الكلمات ببطء وصوت جاد عميق. وتساءلت فاندا فيما بينها وبين نفسها، عما إذا كان يعتبر كل

هذا مزاحاً، ثم وجدت نفسها تكرر بكل هدوء ما كان يقوله رجل الدين.

فخلع الماركيز خاتمه ووضعه في بنصر يدها اليسرى.

كان قاطعوا الطرق أثناء عقد الزواج هادئين تماماً، ولكنهم الآن بدأوا يتكلمون بصوت واحد فرحين، وادركت فاندا انهم كانوا يمضغون كلماتهم، مما يعني ان الشراب الممزوج مع الدواء قد بدأ مفعوله.

شعرت فاندا بأنها تحبه، ومهما حدث بعد ذلك، فقد منحته قلبها وانتهى الأمر.

ومضت لحظة ران فيها الصمت فوق قطاع الطرق، ليعودوا فيأخذوا في الصراخ ثانية، ولم تفهم فاندا ما كانوا يقولونه.

عند ذلك، فيما كانت تنظر إليه إذا باصوات حركات تصدر عن رجال يتحركون بين الأشجار، وسمع بيكر، والذي كان اكثر رزانة من أي من رجاله، سمع هذه الأصوات في نفس الوقت الذي سمعها فيه الإيرل الذي دفع فاندا على ركبتيها بسرعة ليصبح جذع الشجرة خلفها، ثم وقف أمامها. أما بيكر فقد اخرج مسدسه من وسطه واطلق النار في الظلام.

ولكن رصاصته اصطدمت بشجرة، وانطلقت رصاصة أخرى، فترنح ثم تهاوى على الأرض.

عند ذلك، تصايح قاطعو الطرق محذرين، وظهر الجنود من كل ناحية من الساحة، شاهرين بنادقهم نحو رجال العصابة.

وحيث أن الماركيز كان قد وضع لهم في الشراب حبوباً

منومة كانت قد أدارت عقولهم، لم يستطيعوا حتى ان يسحبوا مسدساتهم من احزمتهم. وبينما كان الجنود يتجهون نحوهم، اقبل الميجور لاوسون نحو الماركيز يقول باسماً: «لقد جئنا بكل ما في امكاننا من سرعة، يا سيدي الماركيز.»

فأجاب الماركيز: «وقد وصلتم في اللحظة المناسبة بالضبط. ولكنكم، للأسف، قد فاتكم المجرم الرئيسي.»

ونظر الاثنان إلى بيكر الممدد على الأرض. كانت سترته مفتوحة وقد بدت بقعة حمراء على قميصه.

فقال الميجور: «هنالك ثمن لرأسه يبلغ ألف جنيه قد اصبحت من نصيبك الآن، يا سيدي.»

أجاب الماركيز: «إنني ساضاعفها واقسم المبلغ بين رجالك الذين استطاعوا القدوم إلى هنا بسرعة رغم كونهم كانوا امضوا النهار بطوله في المناورات.»

فقال الميجور غامزاً بعينه: «هذا سخاء بالغ من سيادتك، وهذه المناورة ستسعدهم زمناً طويلاً.»

واستدار ليصافح رجل الدين الذي كان واقفاً عند مدخل الكوخ.

وانتبه الماركيز فجأة إلى انه لم يرفع قناعه، فقال وهو يرفعه عن وجهه: «اشكرك، يا سيدي، لقد قمت بدورك بشكل رائع، وأنا والآنسة فاندا سنكلمك غداً بالمزيد عن ذلك. أما الآن، فسآخذها إلى بيتها.»

فأجاب رجل الدين: «إنني أعلم أن أباها سيكون منتظراً في منتهى القلق، كي يعلم ما حدث.»

كان الماركيز يشعر بأن من الصعب على فاندا ان تتحدث بشكل طبيعي، إلى أي انسان. وجرها نحو الجياد حيث رفعها على ظهر الحصان كينفيشر، وإذ رآها تترنح، قفز خلفها، ثم أدار رأس الجواد.

وعندما مرا بالميجور لاوسون الذي كان ما يزال واقفاً يتحدث إلى رجل الدين، قال له: «اشكرك لإعارتي حصانك، وسأتركه لك لتعيدوه إلى الثكنة.»

وبعد أن حياه الميجور لاوسون، أخذ الماركيز يسير خلال الغابة ببطء. وكان الجنود واسراهم قد سبق وتواروا متجهين نحو العربات العسكرية التي كانت نقلتهم من الثكنة إلى غابة المدرس.

ولم يستغرق وصول الماركيز إلى بوابة المرج التي اعتادت فاندا استعمالها، وقتاً طويلاً.

ودهشت عندما أوقف الماركيز الجواد.

ولأول مرة منذ تركا الغابة، قال: «هل أنت بخير؟»

نظرت إليه، وقالت: «كم كنت... رائعاً... في إنقاذك لي... بهذا الشكل.»

فقال: «كان يجب أن أرمى بالرصاص لعدم إدراكي قبل ان يحدث لك ما حدث، انك تسيرين نحو الخطر، كيف لم أدرك ان اولئك الأوغاد، بعد ان ييأسوا مني، سيحولون انتباههم اليك؟»

«لقد انقذتني حين كنت اتساءل... كيف يمكنني أن اقتل نفسي.»

همس في أذنها: «احبك. ولكنني كنت على وشك ان افقدك.»

فقالت: «وأنا احبك... انا... احبك.»

* * *

استيقظت فاندا في صباح اليوم التالي متأخرة، فقد كان من الصعب عليها أن تذهب الليلة الماضية إلى فراشها لكثرة ما كان عليها أن تحدث عنه أباها والسيد رشمان اللذين كانا في انتظارها.

فقد كانت تدرك مقدار قلقهما.

ذلك أن الماركيز لم يشعر بالخطر الذي قد تتعرض إليه فاندا، إلا بعد رجوع الرقيب أول من المناورات.

ذلك أنه لم يخطر بباله قط أنها ستكون من الحماقة بحيث تسير بجوادها وحدها في أنحاء المرج، كلا ولا خطر بباله، كذلك، بانهم لأنه ألغى حضوره، قد يأخذون فاندا مكانه.

بعد ذهابها وجلوسه مع الميجور لاوسون لوضع خطتهما للهجوم، قال الميجور: «إنني، طبعاً، لم أذكر شيئاً امام الآنسة شارلتون، ولكن بيكر وعصابته قد أثارا الفوضى والرعب البالغ في بعض قرانا الصغيرة.»

وعندما رأى الماركيز منصتاً إليه، تابع يقول: «لم يكن هناك الكثير من المال، بينما بيكر كان يفضل المال على أي شيء آخر.»

وسكت لحظة، ثم قال: «لقد تحرش أولئك الوحوش على كل النساء الشابات وقتلوا كل رجل حاول منعهم من ذلك.»

فقال الماركيز: «لا يدهشني إذن أن أراك تبذل كل جهودك في سبيل القبض على بيكر الذي هو رأس الفتنة.»

وتابعا العمل إلى أن أدرك الماركيز فجأة، وكأن شخصاً قد قال ذلك، أن فاندا في خطر.

وكان قد وجدها فاتنة رائعة الجمال.

وربما لأنهما كانا يعرفان بعضهما منذ كانت طفلة فقد كان بينهما نوع من الصلة، ما جعل من الامكان أن يقرأ افكارها وينتابه شعور لم يدرك كنهه بأن الواحد منهما جزء من الآخر.

وبينما كان يسرع بجواده نحو منزلها، تذكر القصة التي كانت فاندا قد اخبرته بها والتي هي عن قاطع الطريق الكابتن جايمس كامبل.

وكيف انه تزوج الفتاة التي اختطفها. وتملك الماركيز الفزع، فجأة. ذلك أنه إذا تأخر الجنود عن القدوم، فقد يهاجم بيكر القرية أو منزل الجنرال، وفي الحالتين قد يؤذي رجاله فاندا.

وعندما اخبره أبوها الجنرال بأن فاندا قد اصبحت أسيرة بيكر، أدرك ان عليه انقاذها أو يموت في محاولته تلك.

وكعادته في مواجهة أعدائه، بدا هادئاً مسيطراً على اعصابه، وبدا تقريباً، وكأن قوة تسيره. فأرسل السائس إلى رجل الدين ليخبره بأن يكون جاهزاً حين يأتي قاطعوا الطريق لأخذه، ثم ترك الجنرال لينقل تعليماته وتحذيره إلى الميجور لاوسون.

وقد علمت فاندا من أبيها الليلة الماضية أن الماركيز، والماركيز وحده، هو صاحب فكرة انقاذها.

ولكنها كانت من الإرهاق بحيث اصر عليها الماركيز بالذهاب إلى فراشها، بينما كان أبوها والسيد رشمان لا يزالان يلقيان بالاسئلة.

لقد اخذها إلى قمة السلم، ثم فتح لها باب غرفتها، وهو يقول: «إذهبي إلى فراشك، يا غاليتي. انك في أمان الآن ولن يلحق أحد بك أي ضرر بعد الآن، وسنتحدث غداً عن نفسنا.»

وادخلها إلى غرفتها برقة زائدة، ثم اغلق عليها الباب. وسمعته يهبط السلم.

عند ذلك، فاضت عيناها بالدموع. اخذت تقول مرة بعد مرة: «اشكرك... اشكرك يا نيل.»

والآن، ها هي ذي الشمس تتألق في كبد السماء. وأدركت انها اسعد كثيراً في أي وقت مضى في حياتها.

ثم ارتدت اجمل ثوب عندها وذلك لكي تبدو جميلة في عيني الماركيز.

ولكنها ما لبثت ان تساءلت عما إذا كان عليها أن ترتدي ثوب الركوب وتذهب للقائه في القصر. ولأول مرة، ابتدأت تفكر فيما إذا كانا قد تزوجا حقاً.

هل ما جرى الليلة الماضية مجرد تمثيلية لخداع قاطعي الطرق؟

وقالت لنفسها، أنا أحبه. ولكن لماذا يحبني هو بينما لم ير الواحد منا الآخر إلا قليلاً؟

وشعرت وكأنها استيقظت من حلم مهما كانت روعته وجماله، فهو لا يخرج عن كونه حلماً.

وهبطت السلم ببطء.

وكان الوقت قد فات على طلب طعام الإفطار، ولكنها، على كل حال، لم تكن جائعة.

رأت السكون يعم المنزل، ولكنها كانت واثقة من أن أباها في مكتبه.

ودخلت غرفة الاستقبال.

كانت الشمس فيها تتألق من خلال النافذة المستطيلة. ولكنها كانت تشعر وكأن عالما قد غمره الضباب فجأة حتى لم تعد ترى طريقها.

ماذا سافعل؟ ماذا ساقول له؟ ورأت ان اهم شيء هو ألاّ تجعل الماركيز يشعر بانه مقيد.

فقد كانت واثقة من أن هناك مئات من النساء يتمنين الزواج منه إذا هو فكر في الزواج.

وكانت أخبار مباهج باريس بعد انتهاء الحرب قد تدفقت على انكلترا.

وكانت واثقة، نظراً لوسامة الماركيز، من انه قد استمتع جيداً بتلك المباهج.

وحدثت نفسها بانها ستوضح له تماماً انها لن تقيده بأي شكل إذا أراد حريته، وأنها ستوافق على كل ما يقترحه.

• • •

وفي القصر كان الماركيز، والذي كان معتاداً على ساعات قليلة من النوم، كان قد استيقظ في الوقت المعتاد.

وكان عند عودته الليلة الماضية، ممتطياً صهوة كينفيشر حيث انه كان مسرجاً.

عندما دخل بيته لأول مرة منذ سبع سنوات، أسرع الخادم الليلي يبحث عن باكستون.

وقفز هذا من فراشه، وفي دقائق معدودات كان قد ارتدى ثيابه دون أن يفارقه هدوءه المعتاد.

قال: «إنني شديد الأسف، يا سيدي الماركيز، لأنني لم اكن موجوداً لأرحب بسيادتك، ولكن، نظراً لتأخرك، لم نكن نتوقع حضورك قبل الغد.»

فمد الماركيز يده قائلاً: «اعلم ذلك، يا باكستون، ولكنها قصة طويلة ستسمعها، دون شك، في المستقبل ألوف المرات، ولكنني قد ساعدت لتوي الجيش على اعتقال عصابة بيكر والذي كان، كما علمت، مختبئاً في الجناح الغربي من القصر.»

عند هذا، كان من المستحيل ألا يخبر باكستون بالمزيد.

وما لبث باكستون ان ادرك ان الماركيز لا بد أن يكون جائعاً حيث أنه ما زال دون عشاء، فأيقظ الطاهية وخادمين.

وكانت الساعة الثالثة تقريباً عندما ارتاح الماركيز أخيراً على سرير اسلافه، مستسلماً إلى النوم. والآن، وهو يهبط السلم، كان يفكر في فاندا عازماً على الذهاب إليها.

إنه سيعيد كينفيشر ويتدبر أمر إرسال جياده إلى اسطبله.

وكان متوجهاً نحو غرفة الإفطار عندما رأى عربة بريد

تقف عند الباب الأمامي، وهرع خادم إليها، ثم عاد حاملاً رسالة. ونظرة واحدة إلى الكتابة، عرف الماركيز منها شخصية صاحبتها، فحملها معه إلى غرفة الإفطار، حيث سكب لنفسه طعاماً من الأطباق الموضوعة على مائدة جانبية.

كان باكستون يسكب له القهوة قبل أن يفتح أخيراً رسالة كارولين.

كان يتساءل عن السبب في إرسال كارولين رسالتها هذه بواسطة عربة البريد.

فقد كانت هذه الطريقة تكلف غالياً إلا إذا كان هنالك سبب مستعجل لهذا، وسرعان ما علم الجواب.

فقد أخبرته كارولين في رسالتها أنها قد تدبرت أمر إقامة حفلة في قصره في عطلة نهاية الأسبوع القادم.

وكما كانت قد سبق وذكرت له من قبل فإن الأمير سيسره بأن يكون ضيفه، وتابعت تقول: «أرجو ألا تكون غاضباً مني، يا عزيزي نيل، ولكنني أخبرت الأمير بأننا مخطوبان سراً. وقد وعدني بأن لا يأتي على ذكر ذلك.»

بقي الماركيز لحظة يحدق في كلماتها هذه، وقد احمرت عيناه غضباً.

وفجأة، إذا به يضحك بشكل غير متوقع، ثم يلقي بالرسالة على المائدة.

فقد أدرك أنه وجد حلاً لمشكلته عندما حل مشكلة فاندا.

فهو الآن قد أصبح حراً.

فامس، في أوج ذعره لما يمكن أن يحدث لها، قد حصر اهتمامه فقط في طريقة لانقاذها.

ولم يخطر بباله قط أن كارولين لم تعد تشكل تهديداً لحياته أو سعادته.

فهو، في الواقع، لم يفكر فيها لحظة واحدة. وهو الآن قد أصبح حبيباً ومتزوجاً. ولم يعد هناك ما يجعله يقيم حفلة في منزله إلا بعد أن يعود من شهر العسل.

وسيملأ الأمير البهجة في أن يكون أول من يعلم. ومع أن الماركيز كان يكره الإعلان عن أموره الشخصية، فقد كان يعلم أنه من المستحيل أن يمر خبر القبض على عصابة بيكر دون إثارة بين الرأي العام.

وهو سيصبح، سواء شاء ذلك أم أبى، بطلاً قومياً.

أما زواجه الشاعري بفاندا في ذلك الكوخ المهدم، فهو سيأسر قلب كل امرأة.

ومهما قالت كارولين، فلا احد سيستمع إليها.

وترك غرفة الطعام متجهاً إلى مكتبه حيث حرر رسالة إلى الأمير أرسلها مع سائسين على أسرع جوادين لديه.

ثم امتطى كينفيشر، وخرج مجتازاً المرج متجهاً إلى منزل فاندا.

لقد كان دوماً شغوفاً بمنزله، ولكنه كان قد نسي مبلغ ما هو عليه من جمال.

كانت أشعة الشمس تبهر النظر.

أزهار الربيع، البط السابح على صفحة البحيرة، العصافير تطعم صغارها في قمم الأشجار، كل ذلك كان

يخبره بأنه قد ابتدأ حياة جديدة هي مختلفة جداً عن تلك الحياة الشاقة الخطرة التي امضاها مؤخراً.

وبعد أن ترك كينفيشر في الاسطبل، وجد الباب المؤدي إلى المنزل مفتوحاً، فدخل، وساوره شعور بأن فاندا في غرفة الاستقبال، وهناك وجدها.

كانت واقفة إلى النافذة وأشعة الشمس تنعكس على شعرها الرائع الألوان.

لم تسمعه وهو يدخل الغرفة، ولم تلتفت إلا بعد أن وصل إليها. ورأى بريق عينيها.

اضطربت يداها وحيته باحترام، فسألها: «هل رقدت جيداً؟»

«لقد كنت متعبة... جداً كما لا بد... ان تكون أنت.»

فقال: «ولكنني كنت أيضاً سعيداً جداً، فقد كنت أنت في امان وهذا هو المهم.»

فنظرت بعيداً عنه، وقالت: «إنني شاكرة لك جداً... لانقاذك لي. ولكنني واثقة بأن... من الخطأ ان يعلم احد... بالوسيلة التي سلكتها انت لذلك.»

فسألها: «من الخطأ؟»

فأجابت: «إنني لا افكر في... كيف قبضت على قاطعي الطرق، ولكن... في... زواجنا.»

وتلعثمت وهي تقول ذلك وصعد الدم إلى وجنتيها، فسألها: «هل تشعرين بالخزي من ذلك؟»

فأجابت: «كلا، كلا بالطبع... كل ما في الأمر... انها كانت طريقة ماهرة جداً... لإنقاذي... ولكنها لم تكن... قانونية.»

فقال: «لا أدري لماذا تقولين هذا. فقد حدث الزواج بطريقة قانونية وشرعية تماماً واسمي الأول هو جون.»

فحبست فاندا انفاسها: «ولكنك... لكنك تريد أن تكون... حراً.»

فابتسم الماركيز وقال: «لم اقل هذا.»

«ولكنك... لا تكاد تعرفني.»

فأجاب: «بل انا اعرفك منذ... دعيني افكر، منذ ثمانية عشر عاماً، وأنا اعرف الآن شيئاً هو اكثر أهمية من هذه السنوات الماضية.»

فسألته بفضول: «وما هو... ذلك؟»

«هو انك بالضبط الزوجة التي أريد أن تأخذ مكان أمي في العناية بالقصر، وكذلك العناية بي بالطبع.»

فرفعت عينيها إليه وكأنها لا تصدق ما يقول، عاد يقول لها: «هل تريدين حقاً التخلص مني بمثل هذه السرعة؟»

فهمست تقول: «إنني... أحبك. ولكنني واثقة من أن هناك... نساء كثيراً قد تراهن أحسن مني... للزواج.»

فضحك الماركيز برقة زائدة، وقال: «هل انت حقاً بهذا التواضع؟ لقد فكرت حين رأيتك، هل كان ذلك أمس الأول فقط؟ فكرت في انك اكثر النساء اللاتي رأيتهن في حياتي جاذبية.»

فسألته: «اصحيح هذا؟ هل هو صحيح حقاً؟»

«اقسم لك. فقد وقعت في غرامك رغم انني لم اكن متأكداً من أنه كان... هو الغرام... إلى ان ظننت أنني قد... فقدتك.»

«آه، يا نيل.»

وتشابكت اعينهما لحظة طويلة قال بعدها: «إني اقسم،

إذا انت حاولت الهرب مني، ان اضع خطة تبقيك اسيرتي حتى آخر العمر.»

فتمتمت تقول: «وهذا... ما... أريده.»

فقال: «إنني الآن قاطع طريق، يا حبيبتي. وعند فوهة المسدس ألقي اليك أمراً بأن تقفي وتسلمي قلبك.»

فصرخت: «ولكنه لك... لقد كان دوماً لك منذ كنت احترمك... في طفولتي.»

فقال: «إذن، فتابعي احترامك لي، إنني بحاجة إليك ولا استطيع متابعة العيش من دونك.»

ثم تابع بعد قليل: «ما جئت لأقوله، في الحقيقة، هو انك ما دمت قد اصبحت زوجتي الآن، فسآخذك إلى القصر. وعندما تجدين نفسك قوية بما يكفي، سنذهب معاً ونتفحص الأملاك التي لم أرها منذ وقت طويل.»

فسألته: «وهل تستطيع الذهاب... بمفردنا؟»

أجاب: «إننا في شهر العسل، يا غاليتي. ولن يعترضنا احد قبل ان نعود إلى القصر.»

فقالت: «ولكن لديك عملاً كثيراً... هنا.»

فأجاب: «اعلم ذلك، ولكن علي ان اتعلم واكتشف الكثير أيضاً عن زوجتي، ولها الأولوية.»

فضحكت وقالت: «اخاف ان تصاب اسرتك... بخيبة الأمل لعدم زواجك من امرأة... اكثر أهمية... مني.»

فقال: «بل بالعكس. فهذا سيسرهم جداً. فكثير منهم معجبون بأبيك وكانوا يحبون أمك كثيراً.»

ابتسم قبل ان يضيف قائلاً: «وهل هناك أحسن منك ومني لانشاء أسرة تواصل حمل اللقب؟»

فاحمرت خجلاً وهي تتمتم: «دوماً كنت افكر بانه... من المحزن انك الولد الوحيد... لأهلك، مثلي انا.»

فقال: «سيكون لدينا أسرة كبيرة، وسنحول الجناح الغربي إلى غرف للأطفال، فلا يختبىء قاطعوا الطريق فيه ليزرعوا الرعب في النفوس.»

فقالت: «لقد قال لي تايلور، حين حدثني عن قاطعي طريق أولئك، انهم احتلوا المكان لكي يضعوا فيه غنائمهم.»

فقال: «سنلقي نظرة على ذلك، ولكنني أظن بالنسبة إلى ما قاله الميجور لاوسون، ان بيكر لم يكن يهتم بسوى النقود.»

وسكت لحظة، ثم تابع يقول: «ومع ذلك، يا غاليتي، إذا كان هنالك شيء ذو قيمة، فسنمنحه للجنود والبحارة المصابين والذين سرحوا دون تعويض.»

فقالت: «لقد كنت اعلم ان هذا سيحزنك.»

فأجاب: «إني سأثير هذا الموضوع في (مجلس اللوردات). وأنا واثق، يا حبيبتي، من انك ستفكرين في طريقة نجمع بها المال لمساعدة الحالات الميؤوس منها.»

فقالت: «لشد ما انت رائع، وانت تعلم بأنني سأفعل كل ما تريده، فأرجوك، حين تضع خطة لذلك، ان تدعني اساعدك.»

«انك ستكونين معي، وستساعدينني، وستحبينني. هذه هي خطتي للمستقبل.»

فضحكت قائلة: «هذا يجعل الأمر سهلاً، لأنني احبك. واريد ان استمر في هذا القول.»

«لا يمكنك أن تقولي هذا لي دوماً، وإلا، فلن استطيع عنك صبراً.»

فقالت من كل قلبها: «أحبك. احبك.»

إنه الحب الكبير، ولكنه ينمو ويكبر شهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام.

إنه الحب الذي لا حيلة لهما امامه، والذي لا يمكنهما إزاءه، إلا الاستسلام بلا قيد أو شرط.

تمـــت

قفي وسلمي قلبك

بعد أن حارب في جيش الدوق اوف ويلينغتون، يعود الماركيز واين ستوك إلى بيت أجداده. وتكون فاندا تشارلتون الفتاة الرائعة الجمال، في انتظاره لأنها كانت تعلم أنه سيتعرض هنا لخطر مميت.

وتتمكن من لقائه في الفندق الذي كان سيغير فيه جياده قبل متابعة السير، وتقنعه بأن يطلب المعونة من الجنود المقيمين في الثكنة القريبة.

وتعود فاندا إلى القرية بمفردها فيأسرها قطاع الطرق. وكانوا يختبئون في منزل الماركيز وها هما الاثنان، فاندا والماركيز، قد أصبحا الآن في وضع ميؤوس منه.